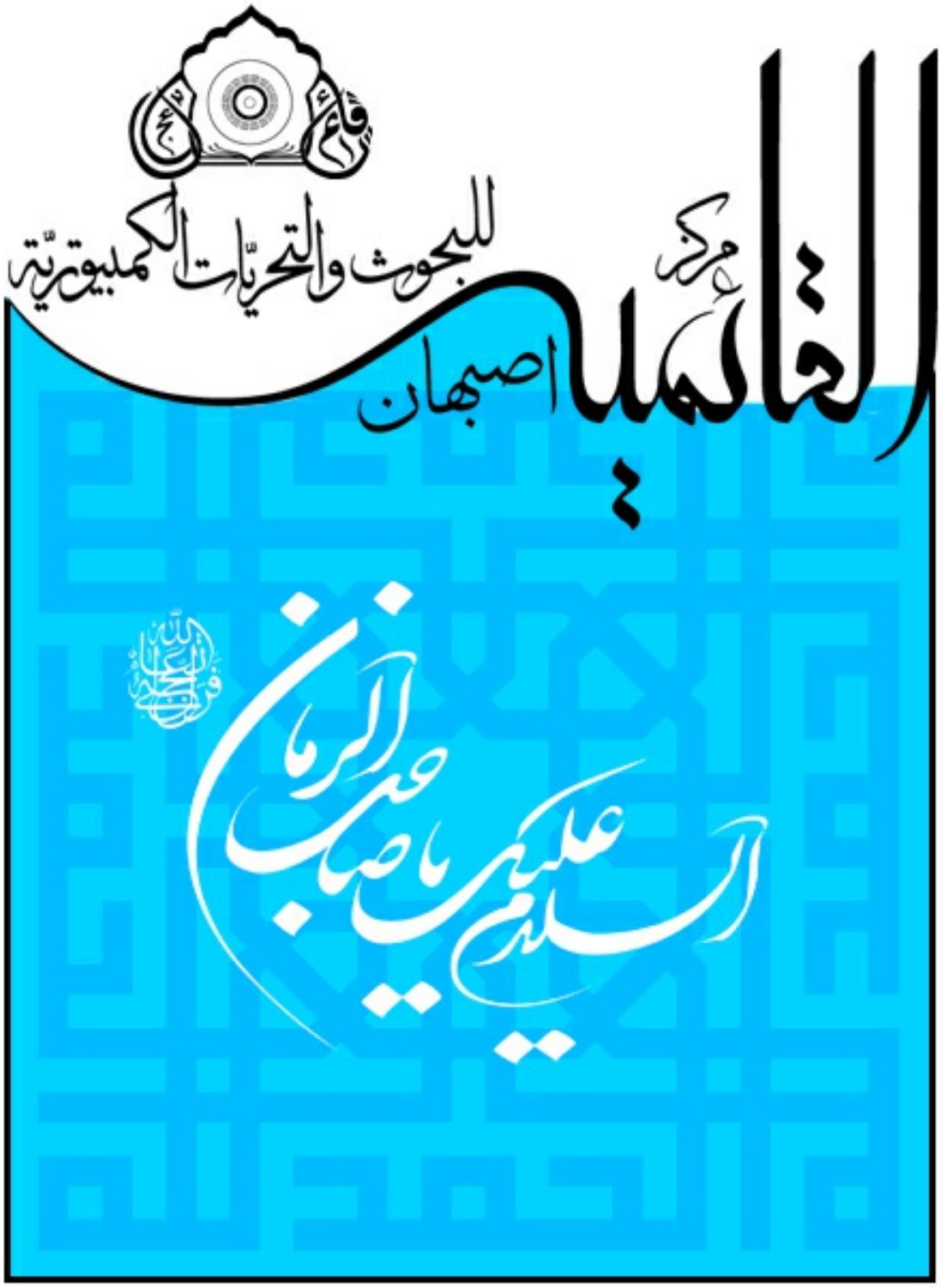

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

المشككون بنهج البلاغة والرد عليهم

تأليف
علي الفتال

دار المحجة البيضاء

بسم الله الرحمن الرحیم

المشككون بنهج البلاغة و الرد عليهم

كاتب:

علي الفتال

نشرت في الطباعة:

دار المحجة البيضاء

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس 5

المشككون بنهج البلاغة و الرد عليهم 7

هوية الكتاب 7

اشارة 7

المقدمة 11

المبحث الأول: المشككون بنهج البلاغة 15

المبحث الثاني: الرد على المشككين بنهج البلاغة 31

اشارة 31

1 - جامع النهج: 32

2- الغثاثة 36

3 - عائدية نهج البلاغة: 49

أقوال المنصفين في «نهج البلاغة»: 61

4 - التعريض بالصحابة 67

5 - الوصي والوصاية 77

6 - الإطناب و الإيجار 89

7 - السجع: 93

8 - دقة الوصف: 106

9 - الألفاظ الاصطلاحية 114

10 - التقسيمات العددية 116

11 - التنبؤات و التوقعات 121

12 - الزهد: 139

13 - وصف الحياة الاجتماعية 151

الفهرس 179

المشككون بنهج البلاغة و الرد عليهم

هوية الكتاب

المشككون بنهج البلاغة و الرد عليهم

تأليف

على الفتال

دار المحجة البيضاء

جميع الحقوق محفوظة الطبعة الأولى

1426 هـ - 2005م

ص: 1

اشارة

المشككون بنهج البلاغة و الرد عليهم

تأليف

على الفتال

دار المحجة البيضاء

ص: 2

جميع الحقوق محفوظة الطبعة الأولى

1426 هـ - 2005م

حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: 547 / 14 - هاتف: 03/287179 - تلفاكس: 01/552847

E-mail:almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com

info@daralmahaja.com

ص: 3

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قديماً قيل: «من ألف وصنّف فقد استُهدِف»

ذلك القول يصدق في كل زمان ومكان.

فالذين يتعاملون مع الفكر و القلم مستهدفون أبداً، لماذا؟

لأنهم:

1- سيطرحون آراء قد لا تتفق مع هذا و ذاك من حملة الأقلام فتبدأ السهام تتراشق فيما بينهم.

2- قد يكون هذا المفكر أو ذاك متفوقاً على بعض أقرانه فيحاول هؤلاء الأقران أن يظهروا فساد قول هذا المتفوق عليهم. غيرة و حسداً أو تقرباً من ذوي السلطة والجاه.

3 – قد يسلط هذا المتفوق الضوء على بعض الظواهر المدانة التي تمس بعض من يمتّون بصلة إلى أصحاب الظواهر المدانة تلك فيحملون معاول الهدم و النيل من هذا المتفوق الذي

ينشد الحق في ما يطرح بهدف قلب الحقائق و تشويهها حتى ولو كانت على حساب المبدأ و العقيدة.

و هكذا كان الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة إذ لمجرد ورود خطبة أو كلام معين لا يتفق مع رأي البعض صاروا يشككون بما جاء في «النهج» هذا.

ولأنهم لا يستطيعون النيل من شخص الإمام علي عليه السلام فقد لجأوا إلى طرق ملتوية و منافقة تظهر غير ما تبطن. وهذه الطرق تناولت نهج البلاغة تناولاً ظاهره الحق و باطنه يجأر بالباطل:

فقد شككوا في جامع النص؛ أهو الشريف الرضي أم الشريف المرتضى ثم راحوا يشككون في عائدية النهج نفسه فمنهم من قال إنه ليس من كلام الإمام علي عليه السلام و منهم من قال إن بعضه للإمام و بعضه من وضع الشريف الرضي و بعضه من وضع ابن أبي الحديد. وهكذا صاروا يتخبطون خبط عشواء وهم يدركون إن ما في نهج البلاغة كله للإمام علي ولكن ما الحيلة وقد وردت فيه خطبة تمس بعض من التفّوا على مبدأ الحق فحرفوه عن جادته التي رسمها لهم صاحب الدعوة الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه و آله و سلم وهؤلاء يسيرون في خط أولئك المحرفين.

فهم قالوا إن في «النهج» «غثاثة» لا يمكن أن يكون هذا الكلام للإمام علي عليه السلام و هو من «سن الفصاحة لقريش».

إنها كلمة حق يراد بها باطل.

وقالوا إن في النهج تعريض بالصحابة وعلي عليه السلام بريء من

كلام يتعرض بالصحابة. إذن فالنهج لا يمكن أن يكون بزعمهم كله من كلام علي عليه السلام.

و مما قالوا أيضاً إن «الوصي» أو «الوصية» كمصطلح لم تكن معروفة في زمن الإمام علي عليه السلام فهي عرفت في عصور لاحقة. ثم إن الإطناب و الإيجاز – في رأيهم – لم يكن معروفاً إلاّ في عصور متأخرة كالعصر العباسي.

و قل مثل ذلك عن السجع الذي زعموا أنه ما كان له أثر في زمن الإمام عليه السلام لذلك قرروا أن الكلام المسجوع هو من وضع شخص أو أشخاص عاشوا في عصور لاحقة بعد عصر الإمام.

أما دقة وصف الطاووس و النحلة و الجرادة والخفاش فقد استبعدوا أن يكون هذا الوصف الدقيق للإمام علي عليه السلام لأنه لم يكن معروفاً في زمانه عليه السلام.

و هكذا صاروا يفتشون في مفردات نهج البلاغة ليجدوا ما يعينهم على إبعاد نسبة «النهج» إلى الإمام عليه السلام، و كلما «اكتشفوا» واحدة من تلك اللقى فرحوا بها وصاروا يفتشون عن «لقية» أخرى تعينهم على منهجهم العلمي هذا!! فالألفاظ الاصطلاحية التي وردت في النهج لا يمكن أن تكون من كلام علي عليه السلام لأنها من كلام «فلاسفة» متأخرين عن عصر الإمام عليه السلام بقرون. و كذلك التقسيمات العددية التي وردت في النهج لا يمكن أن تكون – حسب زعمهم – للإمام علي عليه السلام لأنها غير معروفة في زمانه أيضا.

أما التنبؤات و التوقعات فهي موضوعة ومنسوبة إليه عليه السلام.

وهكذا عابوا عليه الزهد في الحياة.

كما أنكروا الوصف الدقيق للحياة الاجتماعية في زمان الإمام عليه السلام و قالوا إن الذي ورد في النهج لم يكن من قول الإمام نفسه لما فيه من مصطلحات هي بعيدة عن عصره عليه السلام.

و نحن في هذا الكتاب حاولنا أن نسلط الضوء على ما أوردنا من أقوال المشككين و نناقشها و نرد عليها بمنهج علمي معتمدين الحقائق التاريخية و المنطقية التي لا تقبل الطعن و الرد. و قد توخينا بعملنا هذا مرضاة الله جل في علاه و إعادة الحق إلى أصحابه و تبصير من زاغوا عن طريق الحق إما جهلاً منهم أو عناداً. بهدف أن يعودوا إلى جادة الصواب فيتخذوا من شخصية الإمام عليه السلام مثلهم الأعلى في مناصرة الحق و محاربة الباطل و بذلك نكون كالبنيان المرصوص الذي يشد بعضنا بعضاً فنقف بوجه من يحاولون جاهدين حرفنا عن الدين الذي جاء به الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه و آله و سلم من الله تعالى ليخرجنا من الظلام إلى النور –كمقدمة – للقضاء على هذا الدين الحنيف الذي وجدوا فيه النور الذي تعشو منه أبصارهم. عسى أن نكون ممن ساهموا في وضع الحقائق في نصابها فإن استطعنا فمن الله التوفيق و إن أخفقنا فنسأله جل شأنه أن يغفر لنا و أن يسدد خطانا لما فيه نصرة ديننا الذي ارتضاه لنا إنه هو القدير المكين ومنه نستمد العون و التمكين.

علي الفتال

2002/10/5

المبحث الأول: المشككون بنهج البلاغة

إذا ما رجعنا إلى سيرة الشريف الرضي سنعرف أنه هو الذي جمع مفردات «النهج» و ذلك في 400هـ ولكن ثمة من نسب جمع النهج إلى الشريف المرتضى أخي الرضي، من هولاء جورجي زيدان (1) إذ قال و الصحيح إنه من جمع الشريف المرتضى، وكذا قال بروكلمان (2)، أما شوقي ضيف فقد قال في كتابه (تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي / 128: «إن اعتراف الشريف الرضي بجمعه النهج دليل على وضعه إياه، وبذلك قد خلط بين الوضع و الجمع».

في الحقيقة إن تلك الأقوال لا تريد التشكيك في من جمع (النهج) بقدر ما تريد التضبيب حول عائدية النهج أصلاً، إلى الإمام علي عليه السلام، و ذلك للتقليل من شأنه وشأن أمير المؤمنين عليه السلام.

والمسألة قديمة؛ إذ أن خصومه عليه السلام، منذ بزوغ نجمه –

1- تاريخ آداب اللغة العربية 181/1 و 288/2

2- تاريخ الأدب العربي 64/2

سواء في الغزوات و الحروب في بدء الدعوة الإسلامية وفي تقريب النبي محمد صلى الله عليه و آله و سلم إياه قولاً وعملاً – أخذوا ينالون منه بوسائل شتى – إن ظاهرة أو مبطنة، و يرجع تاريخ تلك الخصومة و العداء إلى يوم غدير خم، الذي رفع الرسول الكريم فيه علياً و قال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم والِ من والاه وعادٍ من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله» أو قبل ذلك يوم زوّجه ابنته فاطمة الزهراء و من خلال أحاديثه صلى الله عليه و آله و سلم الكثيرة في حق الإمام عليه السلام كقوله صلى الله عليه و آله و سلم و هو يخاطبه «يا علي ... حبك إيمان وبغضك نفاق؛ وأول من يدخل الجنة محبك، وأول من يدخل النار مبغضك».

وقد أحسّ خصوم الإمام بأنه سيكون له شأن في البنيتين الفوقية و التحتية للهيكلية الإسلامية فصاروا ينالون منه بطرق خبيثة، حتى في زمن النبي صلى الله عليه و آله و سلم أو بعده، ففي زمن النبي صلى الله عليه و آله و سلم نذكر الرواية التي تقول؛ إن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم له بعث علياً عليه السلام في سريّة ليقبض الخمس فاصطفى منه سبيّة؛ واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم متعاقبين واحداً بعد واحد في قول واحد فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم وقد تغيّر وجهه فقال ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ علي مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن

ومؤمنة.

وقال لأحدهم: أتبغض علياً؟ قال:

– نعم.

قال صلى الله عليه و آله و سلم:

– لا تبغضه فإن له الخمس أكثر من ذلك أي أكثر من السبية التي اصطفاها ... لا تبغضه و إن كنت تحبه فازدد له حباً.

و الرواية التي تقول: إنه صلى الله عليه و آله و سلم و بعث الإمام علياً عليه السلام إلى اليمن فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم إبل الصدقة ليريحوا إبلهم فأبى فشكوه إلى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بعد رجوعهم، و تولى شكايته سعد بن مالك الشهيد فقال:

– يا رسول الله لقينا من علي الغلظة و سوء الصحبة والتضييق ... و مضى يعدد ما لقيه حتى ضاق به الرسول ذرعاً فهتف به، وهو في أثناء كلامه:

– يا سعد بن مالك الشهيد بعض قولك لأخيك علي فوالله لقد علمت أنه جيش في سبيل الله.

وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه و آله و سلم للشاكين من الإمام علي عليه السلام:

– أيها الناس لا تشكو علياً إنه لجيش في ذات الله.

و الرسول صلى الله عليه و آله و سلم كان يعلم أن ثمة من يضمر العداوة و البغضاء للإمام علي عليه السلام حسداً له من قربه من ابن عمّه صلى الله عليه و آله و سلم فكان رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يؤكد – كما يقول إبن عباس – لهم منزلته العالية في الدنيا و الآخرة في قوله:

– أنت سعيد في الدنيا و سعيد في الآخرة من أحبّك فقد أحبّني، و حبيبك حبيبي وحبيبي حبيب الله وعدوّك عدوّي، وعدوّي عدوّ الله طوبى لمن أحبّك و الويل لمن أبغضك.

و بعد زمن النبي صلى الله عليه و آله و سلم صاروا يقلبون الحقائق و يحوِّرون الكلم

بما يقلّل من شأن الإمام علي عليه السلام؛ فقد روى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم وجده (أي عليا عليه السلام) في المسجد نائماً و قد ترب جنبه فجعل يمسح التراب عن جنبه ويقول:

- قم يا أبا تراب.

ويرى العلامة محمد صادق الصدر إن كلمة (أبو تراب) كناية عن كثرة عبادته و صلواته لأن المسلمين في السابق كانوا يسجدون على التراب، و كان الإمام علي عليه السلام معفَّر الجبين لكثرة ما يسجد. فقوله: (قم يا أبا تراب) على حد قوله: (قم يا كثير العبادة).

و قد كانت هذه الكنية من احب الكنى إليه صلى الله عليه و آله و سلم إذ كان كثيراً ما يدعوه بها.

و لكن معاوية بن أبي سفيان ومن حوله أحسّوا برفعة هذه الكنية و ميزة،صاحبها، فأخذوا يموِّهون على الناس بأن سبّوه بها على المنابر مظهرين أنها منقصة له (1).

كانت تلك البداية؛ إذ بدأوا بشخص الإمام عليه السلام فنالوا منه ما يشاؤون ليأتوا إلى معطياته الجهادية و الأخلاقية والفكرية والإبداعية فيحطّوا من قدرها ويقللوا من شأنها، فلا غرابة - إذن - إذا ما قرأنا هنا وهناك و في هذا العصر أو ذاك، تشكيكاً في عائدية «النهج» إلى الإمام علي عليه السلام أو الطعن في بعضه بطريقة مبطّنة كتبطين كلمة الحق يراد بها الباطل. فظهرت الأصوات

1- شرح النهج لابن أبي الحديد 4/1

صريحـة مرة و مبطَّنـة أخرى وخفيّـة تارة و صارخة حيناً؛ ف محمود محمد شاكر يرى إن نهج البلاغة موضوع و ملفّق على الإمام علي عليه السلام «لأنه كلام كثير عثاثة» (1).

تلك غمزة لم يكن محمود محمـد شاكر وحـده قـد غمز بها «النهـج» و صاحبه، فقـد شاركه بها – و بطريقة أكثر ضـلالاً – الدكتور شـفيع السيد. فكتب يقول (2):

« ... فضـلاً عما اشتهر به الإمام من بلاغة القول و رصانة العبارة، على نحو لا تستبعد معه نسبة تلك النصوص إليه من حيث تركيبها اللغوي و تشكيلها البياني.»

لا شك أن القارىء الكريم قد لفتت نظره عبارة لا تسـتبعد نسـبة تلك النصوص إليه ... إذن فهو يشـكك بنسـبتها إليه عليه السـلام و لكنه لا يستبعد ذلك ليس هذا فحسب بل إنه يذهب إلى غمزة أخرى للنيل من النهج و صاحبه إذ يقول الدكتور شفيع السيد عن الشيعة:

إن بعضاً منهم غالى في تقديره له (أي للإمام علي عليه السلام) حتى رفعه إلى مستوى من اصطفاهم الله بالوحي، و من هؤلاء الرضي نفسه في مقدمته للكتاب، فقد علل سـبقه – رضـي الله عنه – في مضـمار البيان و تفوقه على كل من عداه من الخطباء و البلغاء؛ بأن كلامه صـلى الله عليه و آله و سلم الكلام الذي عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه

1- مجلة الكاتب المصرية العدد 170 مايو 1975م/ 30 – 31

2- مجلة الهلال العدد /12 السنة 1983/ 95

عبقة من الكلام النبوي (1). وعدَّ ذلك غلواً من الشيعة. و قد نسي الدكتور شفيع السيد و غيره ممن هم على شاكلته في نمط التفكير؛ أن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم نفسه كان يقول: إن النظر إلى وجه علي عبادة – و قد نقلنا ذلك في مبحث فائت من هذا الجزء – و نسي – هو و غيره – قول الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم لعبد الرحمن بن عوف: يا عبد الرحمن أنتم أصحابي و علي بن أبي طالب مني و أنا من علي فمن قاسه بغيره فقد جفاني، ومن جفاني آذاني، و من آذاني فعليه لعنة ربي يا عبد الرحمن إن الله أنزل عليَّ كتاباً مبيناً و أمرني أن أبيّن للناس ما أُنزل إليهم ما خلا علي بن ابي طالب فإنه لم يحتج إلى بيان لأن الله تعالى جعل فصاحته و درايته كدرايتي.

لا ـ أدري ماذا يقول «السيد» و غيره في «ما خلا» و في «لم يحتج إلى بيان» وفي درايته كد رايتي؟ فأيهما «غالي» أكثر الشيعة – و منهم الرضي في مسحته و عبقته – أم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم في ما نقلنا؟

إن قليلاً من التأمل و قليلاً من الركون إلى الحق و قليلاً من الخروج إلى دائرة الضوء تجعلهم يقولون الحق و ينظرون إلى الأشياء بمنظار الحق و الإنصاف فلا ـ يغمزون و لا ـ يلمزون إن علي ابن أبي طالب عربي و إنه إبن عم الرسول وكاتب وحيه و ربيب بيته و رفيقه في حله و ترحاله أكثير على كلامه أن تكون فيه مسحة العلم الإلهي وعبقة من الكلام النبوي؟ ألا يدعو ذلك إلى الفخر أن عربياً و مسلماً و قريباً من الرسول صلى الله عليه و آله و سلم يحمل إلينا هذا المعطى

1- المصدر السابق نفسه /95

العظيم والفكر الخلّاق في بلاغـة وفصاحـة ومنهج علمي ثابت وينبري عربي آخر بل ومسـلم؛ ومن البيت نفسه إلى جمع هذا المعطى في كتاب أسـماه نهـج البلاغة أليس ذلك مما يجب ان نفخر به؟ لا أدري لم هذا التشـكيك؟ هل لأنه يحمل إسم الإمام علي عليه السـلام؟ أم لأنه حظي بما لم يحظ به أي كتاب قبله و بعده من اهتمام المؤلفين و الشراح؟

و قد بلغت شروحه (75) شـرحاً بقول الأميني في غديره (1) و (101) شـرحاً بقول الشيخ عبد الزهراء الخطيب الحسيني (2) و لم تقتصر الشـروح تلك على الشـيعة بل كان معظمهم من غير الشـيعة. و ليس كما ذهب الدكتور شفيع السيد إلى القول إن معظم شراح نهج البلاغة هم من الشيعة. (3)

لنترك قول الشـريف الرضـي و لنقرأ قول الشـيخ محمد عبده الذي هو ليس شـيعياً ولا من أهل البيت، إذ يقول: وليس في أهل هذه اللغة إلّا قائـل بأن كلام الإمام علي بن أبي طالب هو أشـرف الكلام و أبلغه بعـد كلام الله و كلام نبيه و أغزره مادة و أرفعه اسـلوباً و أجمعه لجلائل المعاني.(4)

أما الدكتور زكي نجيب محمود وهو مثل الشيخ محمد عبده في المذهب يقول:

1- الغدير 164/4 - 169

2- مصادر نهج البلاغة و أسانيده. لعبد الزهراء الخطيب 248/1 و 313

3- مجلة الهلال العدد 12/ 96/1983

4- من مقدمة نهج البلاغة شرح محمد عبده 5/1

ونجول بأنظارنا في هـذه المختارات من أقوال الإمام علي التي اختارها الشـريف الرضـي (970 – 1016 م) و أطلق عليها (نهـج البلاغة) لنقف ذاهلين امـام روعـة العبـارة و عمق المعنى فإذا حاولنا ان نصـنف هـذه الأقوال تحت رؤوس عامـة تجمعها؛ وجـدناها تـدور – على الأغلب – حول موضوعات رئيسـة ثلاثة هي نفسـها الموضوعات الرئيسة التي ترتد إليها محاولات الفلاسـفة قديمهم و حديثهم على السواء ألا و هي: الله والعالم والإنسان.

إذن فالرجل – و إن لـم يتعمدها – فيلسوف بمادته، و إن خالف الفلاسفة في أن هؤلاء قد غلب عليهم ان يقيموا لفكرتهم نسقاً يحتويها على صورة مبدأ و نتائجه و أما هو فقد نثر القول نثراً في دواعيه و ظروفه (1)

في الحقيقة إن بذرة التشـكيك بذرها إبن خلكان إذ قال عن نهج البلاغة: إنه ليس من كلام علي و إنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه (2).

و أيده في ذلك الصفدي في الوافي بالوفيات (3)، و اليافعي في مرآة الجنان (4)، و إبن حجر في لسان الميزان (5)

يبدو أن بذرة إبن خلكان قد نمت وصارت شجرة ولكنها

1- المعقول و اللامعقول في التراث العربي/ 30

2- وفيات الأعيان لابن خلكان 3/2

3- المصدر السابق نفسه 375/2

4- المصدر السابق نفسه 55/3

5- المصدر السابق نفسه 223/4

شائكـة فتفيأ في ظلالها بعض كتابنا الـذين عز عليهم أن يكون علي ابن أبي طالب عليه السـلام هو قائل كلام نهـج البلاغة، فصاروا يرددون أقوال إبن خلكـان و غيره ممن تـابعوه من القـدماء؛ فجرجي زيـدان يقول: إنـا كنـا نرى أن كثيراً من تلك الخطب ليس لعلي بـدليل اختلاف الاسلوب و مخالفة ما فيها من المعاني لعصره (1)

و ظل شوقي ضـيف يتأرجـح في كلامه يبـدو أن النهـج قـد دوَّخه فراح يخبط خبط عشواء؛ فمرة يقول: إن علياً قد خلف خطباً كثيرة واخرى يقول: إن – النهـج – من وضع الشـريف الرضـي و لكي يعزز قوله هذا و يدعمه يقول: إن الوضع على علي أقدم من عصـر الشـريف بل من عصر المسعودي.

أية حزّورة هذه التي «حزرها» شوقي ضيف؟

أما محمود محمـد شاكر فقـد قال: و هو يرد على قول الـدكتور زكي نجيب محمود لننظر كم اجتمع في هـذا الرجل (يعني الإمام علي عليه السـلام) من أدب وحكمة و فروسـية و سـياسة قال محمود محمد شاكر: ألم يكن أسلم له في طريقه و يريد الدكتور زكي نجيب محمود أن يسأل وأن يحاول أن يفكر على الأقل حتى يتثبت من صحة نسبة ما في هذا الكتاب من الأقوال إلى علي رضي الله عنه؟ إنه إذا بطل ان يكون هذا الكلام صحيح النسبة إلى علي كان استخراج صورة علي منه ضرباً من العبث (2).

1- تاريخ آداب اللغة العربية 2/ 288

2- مجلة الكاتب العدد 170، 15 مايو 1975/ 30

و لكن محمود محمد شاكر هذا لم يكتفِ بما قال إذ أراد أن يؤكد شيئاً آخر في نفسه ظل يتغرغر به زمناً طويلاً فقال: «إن النظرة الأولى إلى جملة ما في الكتاب من الكلام تقطع بأن

كثرته الكاثرة لم تجرِ على لسان علي رضي الله عنه إلا أقل من العشر ... (1).

و هنا سيتنفس محمود محمد شاكر الصعداء بعد أن يؤكد إن إبن سلام عندما شرح غريب ما في النهج لم يكن فيه من كلام علي عليه السلام الربع من حديث عمر (2).

و هنا خرجت الغرغرة و ارتاح الرجل لهذه المقارنة التي جهد لها في مقاله فـ ربع حديث عمر هي ركيزة المقال و مقصوده.

و على غرار بعض الكتاب الذين يوردون جملة الأمور، و لما لم يكن في حوزتهم شيء آخر يقولونه ختموا ذلك التعداد بقولهم: و غيرها و غيرها أو «وما إلى ذلك» أو الخ .... و هكذا فعل محمود محمد شاكر و هو يحاول جاهداً تأكيد بطلان كون ما في النهج لـ علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: و هناك أدلة أخرى على بطلان نسبة ما في هذا الكتاب إلى أمير المؤمنين (3) لأنه عجز أن يورد أدلة أخرى كأنه أدرك أن ما أورده من الأدلة لم تقم حجة على بطلان نسبة ما في النهج إلى الإمام بل قامت دليلاً على بطلان كلامه هو، وأعني كلام محمود

1- المصدر السابق نفسه / 30

2- المصدر السابق نفسه / 31

3- المصدر السابق نفسه / 31

محمد شاكر، و لأنه أدرك ذلك أراد أن يستغفر لنفسه و يكفر عنها هذا الخطأ في المنهج العلمي في تناول موضوعات كهذه أسرع إلى القول، و لكنه قول مبطن أيضاً فقال: فكتاب كهذا الكتاب، يدل صريح العقل و النظر و صريح النقل والتثبت على أنه كتاب قريب النسب ...» (1)

و ممن يعني هذا القرب بالنسب؟ هل من الإمام علي عليه السلام أم من الشريف الرضي رحمه الله؟.

هكذا غلَّف قوله ليموِّه على القارىء في نظره. و مع فإنه يؤكد أنه كان غير لائق بالدكتور زكي أن يتسرع إلى التقاطه دون أن يفحصه و يتحرى عنه فيجعل ما فيه من كلام كثير الغثاثة – و قد كتب أكثره بعد دهور متطاولة – ممثلاً لعلي بن ابي طالب و ممثلاً للقرن الأول من الهجرة (2).

سامحك الله يا رجل ...! إنك أردت ان تُعرف بين الناس كـ_ كاتب و باحث و «أديب» و محقق فشهرت سيفك هذا ولكنه كان سيفاً نابياً فصرت كالبائل في بئر زمزم ... ونحن نقول لك:

ما هكذا تورد – يا سعد – الإبل.

إذ إنك أردت أن تتواصل مع إبن خلكان في تشكيكه بصحة نسبة النهج إلى الإمام علي عليه السلام و لكنك، و ابن خلكان و غيركما علي كثير، ركبتم افراساً كبت و شهرتم سيوفاً،نبت فبقيتم في

1- المصدر السابق نفسه / 31

2- المصدر السابق نفسه / 31

صحرائكم تلهثون و ماء زمزم تنشدون حتى فيض الله لكم من يرشدكم أن بئر زمزم لا يجعل من أيِّ منكم رسولاً كمحمد بن عبد الله صلى الله عليه و آله و سلم و لكنكم بقيتم تغطون وجوهكم بغربال لئلّا ترون شمس الحقيقة، و إلّا ماذا يعني قول الدكتور شفيع السيد إن نسبة الشريف الرضي - جامع الكتاب - إلى البيت العلوي ... يمكن أن تكون مدعاة للشك و دافعاً إلى الإتهام بالتحيز و التعصب ... و قد قال عنه بعض واصفيه: كان شاعراً مفلقاً فصيح النظم ضخم الألفاظ ... و كان مع هذا مترسلاً كاتباً بليغاً متين العبارات، فمن اليسير على مثله إذن أن يؤلف من الكلام ما يشاكل كلام علي رضي الله عنه في جزالة الألفاظ و متانة السبك (1)

إن الدكتور شفيع السيد مثل «ربعه» يغالط نفسه بل يدينها من فمه، كيف؟

إذا كان يعترف أن الشريف الرضي «شاعر مفلق» و«فصيح النظم» و «ضخم الألفاظ» و كاتب بليغ و متين العبارة فماذا يمنعه أن ينسب ما في النهج إلى نفسه ليحلق بشهرته في سماء الأدب و الفكر أكثر؟ نحن نعرف و الدكتور يعرف أن ثمة من ينشدون الشهرة يسطون على هذا العمل الإبداعي أو ذاك لينسبوه إليهم لأنهم قاصرون أن يأتوا بمثله. و نحن قد اعترفنا بعدم قصور الشريف الرضي، بل و تمكنه من ادواته فما الداعي أن ينسب كلاماً لنفسه وهو لغيره؟ هذه أول إدانة للدكتور الفاضل ...! و ثاني إدانة أنه اعترف أن كلام الإمام علي عليه السلام يتسم ب_ «جزالة اللفظ

1- مجلة الهلال العدد 12 السنة 1983 / 95 - 96

ومتانة السبك»، إذن، إذا كان ما جاء به الشريف الرضي جزل اللفظ ومتين السبك فما يمنع أن يكون للإمام علي عليه السلام؟ بل أليس الأقرب والأكثر معقولية أن يكون له من أن يكون للرضي رحمه الله؟ سيما ونحن نعرف مكانة الإمام علي عليه السلام الفكرية والأدبية، وقد مر بنا شيء منها كثير لا يقبل الطعن.

ولكنه بئر زمزم ...! يا له من بئر مغرٍ قصاده الواهمين ...! الحاملين على أكتافهم مقولة: «خالف تُعرف».

لعلهم وجدوا خيطاً هنا و خيطاً هناك فشدوا أنفسهم بهما حتى و إن كانا من خيوط العنكبوت ليتأرجحوا فيراهم الناس وبذلك يحققون الشهرة التي يريدون والمجد الذي ينشدون. وكان أحد الخيوط العنكبوتية ما ذكره ابن أبي الحديد و هو يختم شرح نهج البلاغة بكلمات حكيمة قصار إذ قال: ونحن الآن ذاكرون ما لم يذكره الرضي مما نسبه قوم إليه أي (الإمام علي عليه السلام) فبعضه مشهور عنه و بعضه ليس بذلك المشهور ولكنه قد روي عنه و عزي إليه، و بعضه من كلام غيره من الحكماء لكنه كالنظير لكلامه و المضارع لحكمته ولما كان ذلك متضمناً فنوناً من الحكمة نافعة رأينا أن لا نخلي هذا الكتاب منه لأنه كالتكملة والتتمة لكتاب نهج البلاغة، وربما وقع في بعضه تكرار يسير شذ عن أذهاننا التنبه له لطول الكتاب وتباعد أطرافه، و قد عددنا ذلك كلمة كلمة فوجدناها ألف كلمة (1). فراحوا يشككون بالنهج كله فيدّعون بأنه ليس من كلام الإمام علي عليه السلام.

1- شرح النهج 420/4

و بذلك حاكوا ابن خلكان الذي بذر بذرة التشكيك الأولى – كما ذكرنا – إذ قال في وفيات الأعيان 3/3: «و قد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام علي رضي الله عنه، هل جمعه أم جمع أخيه الرضي؟ و قد قيل إنه ليس من كلام علي، و إنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه».

كما حاكى – من قبل – كل من الصفدي في الوافي بالوفيات و اليافعي في مرآة الجنان و ابن حجر في لسان الميزان و غير أولئك من القدامى و المحدثين منهم الذهبي في ميزان الاعتدال 101/15 في ترجمة الشريف الرضي: إنه هو المتهم بوضع نهج البلاغة، ثم قال: و من طالع كتابه نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علي، ففيه السب الصريح، و الحط على السيدين أبي بكر وعمر ... الخ.

و منهم محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمته الشرح النهج إذ يقول:

إن في الكتاب من التعريض بصحابة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لا يسلم أن يصح صدوره عن مثل الإمام علي.

و أنكر آخرون أن يكون النهج للإمام علي عليه السلام بسبب ما فيه من ذكر الوصي والوصاية (1)، أو طول بعض الخطب و الكتب كالقاصعة و الأشباح، و عهد مالك بما لم يك مألوفاً في صدر الإسلام (2).

1- أثر التشيع في الأدب العربي 66

2- المصدر السابق نفسه / 56 و الإمام علي لأحمد زكي صفوة /131

والسجع قام دليلاً آخر – عندهم – على عدم نسبته إلى الإمام عليه السلام إذ لم يعهده عصر الإمام و لا عرفه، و إنما طرأ ذلك على العربية بعد العصر الجاهلي و صدر الإسلام و افتتن به أُدباء العصر العباسي و الشريف الرضي جاء من بعد ذلك على ما ألفوه فصنف الكتاب على نهجهم و طريقتهم.(1)

ليس ذلك فحسب بل الوصف و دقته دليلهم الآخر على ذلك الإكتشاف الذرّي إذ أن فيه استفراغ صفات الموصوف، و أحكام الفكرة، و بلوغ النهاية في التدقيق كما تراه في وصف الخفاش و الطاووس، و النملة و الجرادة وكل ذلك لم يلتفت إليه علماء الصدر الأول، ولا أدباؤه ولا شعراؤه و إنما عرفه العرب بعد تعريب كتب اليونان و الفرس الأدبية و الحكمية، ويدخل في هذا استعمال الألفاظ الإصطلاحية التي عرفت في علوم الحكمة من بعد كالأين و الكيف و نحوهما، و كذلك استعمال الطريقة العددية في شرح المسائل و في تقسيم الفضائل أو الرذائل مثل قوله (و يعني الإمام علي عليه السلام): الاستغفار على ستة معانٍ» و «الإيمان على أربع دعائم» و «الصبر واليقين والعدل والجهاد والصبر منها على أربع شعب» (2). و علم الغيب كان ركيزتهم الأخرى في هذا الاكتشاف، لأنهم وجدوا في الكتاب ما يُشَم منه ريح ادعاء صاحبه علم الغيب و هذا أمر يجل عن مثله مقام علي و من كان على شاكلة علي ممن حضر عهد الرسالة، و رأى نور النبوة (3).

1- مقدمة محمد محيي الدين عبد الحميد لشرح النهج

2- المصدر السابق نفسه

3- المصدر السابق نفسه

ثم ماذا بعد هذا؟ هل انتهى ما في جعبتهم من «أدلة ...!»؟

كلاـ فهم أخـذوا عليه مـا فيه من الحث على الزهـد وذكر المـوت، وقرض الـدنيا على منهـاج المسـيح عليه السـلام (1) و وصف الحيـاة الاجتماعيـة على نحو لم يُعرف إلا في عصور متأخرة، ترى في هـذه الخُطب طعناً شديـداً على الوزراء والحكام والولاة والقضاة والعلماء في السلوك والأخلاق وفي الذمم والضمائر، واصفاً القضاة بالجهل وعدم المعرفة بأحكام الشريعة (2).

ثم إن بعض ما رُوي عن علي في نهج البلاغة عن غيره في غيره، كقوله:

كان لي فيما مضـى أخٌ عظّمه في عيني صـغر الدنيا في عينيه و هذا مرويّ عن ابن المقفع. و كقوله: «الدنيا دار مجاز ... يُروى لسحبان وائل (3)

وأخيراً: «خلو الكتب الأدبية من كثير مما في (نهج البلاغة)» (4).

1- أنظر التشيع في الأدب العربي/ 60 - 61

2- المصدر السابق نفسه 66

3- ترجمة علي بن أبي طالب - أحمد زكي..صفوة

4- المصدر السابق نفسه 122

المبحث الثاني: الرد على المشككين بنهج البلاغة

اشارة

تلك كانت أهم اكتشافات المشككين في نسبة ما في (نهج البلاغة) إلى الإمام علي عليه السلام فهل نتركهم ينعمون بما توصلوا إليه!؟ ونحن نعرف أنهم وارثوا تطلع ...! صاحب بئر زمزم ...! (رحمه الله) فقد كان يريد أن يُعرف ويُشار إليه بالبنان ... كما عُرف محمد بن عبد الله صلى الله عليه و آله و سلم وأشير إليه بالبنان فكان له ما أراد ...! ولكن شتان بين ما عُرف به الرسول العظيم ومحمد صلى الله عليه و آله و سلم و ما أشير إليه بالبنان وما عُرف به صاحب بئر زمزم ...! و ما أشير إليه بالبنان ...!

إذ أينما كان يولّي وجهه يُشار إليه بقولهم: «هذا الذي بال في بئر زمزم ... جاء ... ذهب ... قام ... قعد ... الخ فذكره التاريخ واشتهر ...! حتى جاء أحفاده فأرادوا السير على منهجه فلم يجدوا بئر زمزم وعصر بئر زمزم وأهمية بئر زمزم لقوافل العرب، فلجأوا إلى نهج البلاغة فأدلوا فيه بآرائهم تلك فكان لهم ما أرادوا من الشهرة ... والصيت ... وإنهم كانوا فرسان حلبتهم في التشكيك

بـأقوال الإمـام أمير المؤمنين علي عليه السـلام، و بـذلك تواصـلوا مع صـاحب بئر زمزم و ابن خلكان أقول: هل نتركهم و «اكتشافاتهم» ... تلك؟

بالتأكيد لا ... لذلك سنرد عليهم بما يرضي الله جل و علا وما يرضي رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم وما يرضي العقيدة و المبدأ وما يرضـي الضـمير وما يرضـي المنهـج العلمي في مقارعـة الحجـة بالحجـة مسـتعينين بالله الواحد الأحد و ما توفر لدينا من مصادر في هذا المجال.

1 - جامع النهج:

قال الشـريف الرضـي، في كتابه «المجازات النبوية» ص 40 عنـدما ذكر حديث الرسول صـلى الله عليه و آله و سـلم: «أغبط الناس عندي مؤمن خفيف الحاذ (1) ذو حظ من صـلاة قال ويبين ذلك قول أمير المؤمنين عليه السـلام في كلام له «تخففوا تلحقوا» وقد ذكرنا ذلك في كتابنا الموسوم نهج البلاغة الذي أوردنا فيه مختار جميع كلامه صلى الله عليه و على الطاهرين من أولاده.

و في كلامه على الحديث: أسر عكن لحاقاً بي أطولكن يداً قال:

و مثل ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة.

1- الحاذ بالحاء المهملة و الذال المعجمة و هو قول بعضهم طريقة المتن من الإنسان و ما وقع عليه من اللبد من ظهر الفرس

وقـد ذكرنا ذلك في كتابنا الموسوم بـ نهج البلاغة (1) و كلامه على الاسـتعارة في قوله صـلى الله عليه و آله و سلم في خطبة له: ألا و إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة و إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة قال:

و يُروى هذا الكلام على تغيير في ألفاظه لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السـلام، و قد أوردناه في كتابنا الموسوم بـ نهج البلاغة و هو المشتمل على مختار كلامه عليه السلام في جميع المعاني و الأغراض و الأجناس والأعراض (2).

وحول قوله صـلى الله عليه و آله و سـلم: «ما نزل من القرآن آية إلا و لها ظهرٌ و بطنٌ، و لكل حرف حد و لكل حد مقطع». قال: «المراد إن القرآن يتقلب وجوهاً و يحتمل من التأويلات ضـروباً كما وصفه أمير المؤمنين عليا عليه السلام في كلام له فقال: القرآن حمّال ذو وجوه ... و قد ذكرنا هذا في كتابنا الموسوم بـ نهج البلاغة.

و عن قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «القلوب أوعية بعضها أوعى من بعضها» قال:

و ربما نُسب هـذا الكلام إلى أمير المؤمنين على خلاف في لفظه فقـد ذكرناه في جملة كلامه لكميل بن زياد النخعي في كتاب نهج البلاغة (3).

إضافة إلى ذلك فإن الرضي كان يذكر المجازات النبوية

1- المجازات النبوية 60

2- المصدر السابق نفسه 152

3- المصدر السابق نفسه 188

أثناء شـرحه النهج كقوله صـلى الله عليه و آله و سلم: «العين: وكاء له» (1). فقال الرضـي: و هذا من الاستعارات العجيبة ... و قد تكلمنا على هـذه الاسـتعارة في كتابنـا الموسوم بـ«مجازات الآثار النبويـة» ... و من الناس من ينسب هـذا الكلام إلى أمير المؤمنين علي عليه السـلام، و قـد ذكر ذلك محمد بن يزيد المبرد في كتاب المقتضب في باب اللفظ بالحروف، و في الأظهر الأشـهر إنه للنبي عليه الصـلاة و السلام.

فعلى ماذا تدل عبارة و في الأظهر الأشهر ألا تدل على أمانة تاريخية في نقل النصوص و التثبت من صحة نسبتها؟ إذ لو كان النهج من وضع الرضـي لما احتاج إلى أن يحتاط هذا الاحتياط فيرفع كلاماً ظهر له أنه ليس للإمام علي عليه السـلام بل هو للرسول صـلى الله عليه و آله و سلم، تلك واحدة.

و في كتابه رحمه الله الموسوم بـ في حقائق التأويل و الـذي طُبع منه الجزء الخامس فقط يقول الرضـي في ص 167: و إني لأقول أبداً: لو كان كلامه يلحق بغباره، أو يجري في مضـماره بعد كلام رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لكان ذلك كلام أمير المؤمنين عليه السلام، إذ كان متفرداً في الفصاحة لا تزاحمه عليه المناكب، ولا يلحق بعقوه الكادح الجاهد، ومن أراد أن يعلم برهان ما أشـرنا إليه فلينعم النظر في كتابنا الـذي ألّفناه و وسـمناه بـ «نهـج البلاغة»، و يشـتمل على مختار جميع الواقع إلينا من كلام أمير المؤمنين عليه السـلام، في جميع الأنحاء والأغراض والأجناس والأنواع من خطب وكتب، ومواعظ وحكم .... وتلك ثانية.

1- المصدر السابق نفسه 284

و الثالثة؛ قال الرضي رحمه الله في جانب من نهج البلاغة:

فإني كنت في عنفوان السن و غضاضة الغصن ابتدأت بتأليف كتاب في خصائص الأئمة عليهم السلام يشتمل على محاسن أخبارهم، و جواهر كلامهم حداني عليه غرض ذكرته في صدر الكتاب و جعلته أمام الكلام و لما فرغت من الخصائص التي تخص أمير المؤمنين علياً صلوات الله عليه، و عاقت عن إتمام الكتاب محاجزات الأيام و مماطلات الزمان و كنت قد بوبت ما خرج من ذلك أبواباً، و فصلته فصولاً فجاء في آخرها فصل يتضمن محاسن ما نقل عنه عليه السلام من الكلام القصير في المواعظ و الحكم و الأمثال و الآداب دون الخطب الطويلة و الكتب المبسوطة فاستحسن جماعة من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصل المقدم ذكره معجبين ببدائعه و متعجبين من نواصعه وسألوني عند ذلك أن أبدأ بتأليف كتاب يحتوي على المختار من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه و متشعبات غصونه من خطب و كتب ومواعظ وأدب (1).

و قوله و هو يذكر قول الإمام علي عليه السلام: «تخففوا تلحقوا» فما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولاً، وما أبعد غورها من كلمة، وأنفع نطفتها من حكمة، وقد نبهنا في كتاب الخصائص على عظم قدرها وشرف جوهرها (2). تلك الثلاث تدل بما لا يقبل الطعن أن الشريف الرضي هو جامع «نهج

1- شرح النهج 263/2

2- المصدر السابق نفسه 44/1

البلاغة و ليس المرتضـى رحمه الله ومن يرى غير ذلك – بعد تلك التصـريحات من الشريف الرضي – فهو: سفه الرأي و إصرار على الخطأ ... فالرضي روى ما رأى و أورد ما ورد ... (1).

2- الغثاثة

مررنا بكلام لمحمود شاكر تجنى فيه على الإمام علي عليه السـلام فقال إن في كلامه – في النهـج – كثيراً من (الغثاثة) و كان في طرحه هذا (الاكتشاف) مفتقراً إلى الحجـة المنطقيـة المقنعـة، لـذلك فإننا سنسـلك معه طرقاً علمية و منهجية لعله يسـتنير بها هو و غيره، مما أرهقت أبصارهم و بصائرهم ظلمة الطريق التي سلكوها و الدرب الذي اختاروه لأنفسهم.

يقول الشـريف الرضـي في مقدمـة نهـج البلاغة: كان أمير المؤمنين علي مشـرّع الفصاحة ومورِّدها، و منشـىء البلاغة ومولدها، ومنه ظهر مكنونها، وعنه أخِذَت قوانينها، وعلى أمثلته أخـذ كل قائل خطيب، وبكلامه اسـتعان كل واعظ بليغ، ومع ذلک فقـد سـبق وقصّروا وتقدّم وتأخروا؛ لأن كلامه عليه السـلام الكلام الذي عليه مسـحة من العلم الإلهي و فيه عبقة من الكلام ... النبوي وهو البحر الذي لا يساجل و الجم الذي لا يُحافَل (2).

أما الشيخ محمد عبده فقد قال في مقدمة شرحه نهج

1- المصدر السابق نفسه 49/1. وانظر خصائص الأئمة/ 187، الذي ألفه الرضي سنة 383هـ.

2- نهج البلاغة 65/20

البلاغـة: «فقـد أوفى لي حكم القدر بالإطلاع على كتاب نهج البلاغة مصادفةً بلا تعمد أحببته على تغير حال وتبلبل بال و تزاحم أشـغال، وعطلة من أعمال فحسـبته تسـلية وحيلة للتخلية فتصـفّحت بعض صـفحاته، وتأملت جملاً من عباراته من مواضع مختلفات، و موضوعات متفرقات، فكان يُخَيل إليَّ في كل مقام أن حروباً شبت و غارات شُنّت و أنّ للبلاغة دولة، و للفصاحة صولة ... وأن جحافل الخطابة وكتائب الذرابة في عقود النظام، وصـفوف الانتظام تنافح بالصـفيح الأبلج، و القويم الأملج ... وإن مدبّر تلك الدولة و باسل تلك الصولة هو حامل لوائها الغالب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

بـل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع أحس بتغير المشاهـد، وتحوّل المعاهـد فتارة كنت أجـدني في عالم يغمره من المعاني أرواح عاليـة في حُلَل من العبارات الزاهيـة تطوف على النفوس الزاكية و تدنو من القلوب الصافية ... و أحياناً كنت أشـهد أن عقلاً نورانياً لا يشـبه خلقاً جسـدانياً، فُصِل عن الموكب الإلهي واتصل بالروح الإنساني، فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسـما به إلى الملكوت الأعلى، و نما به إلى مشهد النور الأجلى، و سكن به إلى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس (1).

وهذا عبد الحميد الكاتب يقول: حفظت سبعين خطبة من خطبه (أي من خطب الإمام العالمي) ففاضت ثم فاضت.

1- مناقب آل أبي طالب 7/2

ولما سُئل ما الذي خرّجه في البلاغة؟ قال: «خطب الأصلع (1).

ومثل ذلك قال ابن نباتة المصري: حفظت من الخطابة كنزاً، لا يزيده الإنفاق إلا سعة حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب.

أما الشريف المرتضى فقد روى إن الحسن البصري كان بارع الفصاحة بليغ المواضع كثير العلم و جميع كلامه في الوعظ، وذم الدنيا، أو جلّه مأخوذ لفظاً و معنى أو معنى دون لفظ، من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو القدوة والغاية» (2)

و كان ابن المقفع يقول عن خطب الإمام علي عليه السلام: شربت من الخطب رياً و لم أضبط لها روياً، ففاضت ثم فاضت فلا هي نظاماً، وليس غيرها كلاماً» (3).

أما الأستاذ أحمد محمد الحوفي فقد أوجز لنا في كتابه بلاغة الإمام علي صفات تعبيرات الإمام علي عليه السلام فقال:

1 – تخير المفردات بحيث تنسجم مع الناحية الصوتية فتجيء خفيفة على اللسان لذيذة الوقع في الآذان، موافقة لحركات النفس مطابقة للعاطفة التي أزجتها و الفكرة التي

1- العقد الفريد 357/2

2- شرح ابن هيثم ج 1

3- انظر: إتقان المقال 192، أسد الغابة 42/2 الإصابة في تمييز الصحابة 1 / 567

أملتها. و يورد أمثلة على ذلك مثل قوله في كتاب إلى عماله على الخراج:

إنكم خزان الرعية، و وكلاء الأمة، وسفراء الأئمة». و قوله لمعاوية:

لست بأمضى على الشك مني على اليقين». و قوله: «كلما أطل عليكم منسر ... أغلق كل رجل بابه و انجحر انجحار الضبة في جحرها و الضبع في وجارها».

وقوله: «من أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه». وقوله: «إن تقوى الله دواء داء قلوبكم وبصر عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم وطهور دنس أنفسكم، وجلاء غشاء أبصاركم وأمن فزع جأشكم، وضياء سواد ظلمتكم.

2 – قوة التعبير: ومن السهل أن نجد كثيراً مما يتصف بالقوة والجزالة والفخامة في خطب الإمام علي وفي رسائله تعبيراً عن عواطفه و أفكاره التي تقتضي التعبير القوي الفخم الملائم لشدتها وقوتها وحرارتها ومن الأمثلة والنماذج قوله:

«والله لا ـ أكون كالضبع تنام على طول اللدم حتى يصل إليها طالبها، ويختلها راصدها ولكني أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً، حتى يأتي عليَّ يومي». وقوله:

ألا و إني لم أرَ كالجنة نام طالبها و لا كالنار نام هاربها، ألا و إنه من لم ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لم يستقم به الهدى

يجرُّ به الضلال، ألا و إنكم قد أمرتم بالظعن و دللتم على الزاد و إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى و طول الأمل».

و قال في خطبة يخوّف بها أهل النهروان: «فأنا نذيرٌ لكم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر، و بأهضام هذا الغائط على غير بينة من ربكم و لا سلطان مبين معكم قد طوّحت بكم الدار و احتبلكم المقدار وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فأبيتم عليَّ إباء المخالفين، المنابذين حتى صرفت رأيي إلى هواكم و أنتم معاشر أخفّاء الهام، سفهاء الأحلام، ولم آتِ – لا أبا لكم – بجراً، ولا أردت بكم ضراً

3 – سهولة التعبير مثل قوله في كتاب إلى عبد الله بن عباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر: فعند الله نحتسبه ولداً،ناصحاً وعاملاً كادحاً وسيفاً قاطعاً وركناً دافعاً، وقد كنت حثثت الناس على لحاقه و أمرتهم بغياثه قبل الوقفة، و دعوتهم سراً و جهرا، وعوداً وبدءا، فمنهم الآتي كارهاً، و منهم المعتل كاذباً، ومنهم القاعد خاذلاً.

و قوله في رسالة إلى عمر بن العاص قبل التحكيم:

«أما بعد فإن الدنيا مشغلة عن غيرها ولن يصيب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً يؤيده فيها رغبةً و لن يستغني صاحبها بما نال عما لم يبلغ و من وراء ذلك فراق ما جمع و السعيد من وُعظ بغيره فلا تحبط أبا عبد الله أجرك».

وقوله في خطبة له:

اسـمعوا قولي وأطيعوا أمري فوالله لئن أطعتموني لا تغوون، وإن عصـيتموني لا ترشدون خذوا للحرب أهبتها، وأعدّوا لها عدّتها، فقد شـبّت نارها ... ألا إنه ليس أولياء الشيطان من أهل الطمع و المكر و الجفاء بأولى في الجد في غيهم و ضلالتهم من أهل البِر و الزهادة و الإخبات في حقهم وطاعة ربهم.

إني والله لو لقيتهم فرداً وهم ملء الأرض ما باليت ولا اسـتوحشت وإني من ضلالتهم التي هم فيها والهدى الذي نحن عليه لعلى ثقةٍ وبيّنة ويقين وبصيرة.

انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (1).

4 – قِصـر الفقرات: مثـل قوله لمّا أغار النعمان بن بشـير الأنصاري على عين التمر: منيت بمن لا يطيع إذا أمرت، ولا يجيب إذا دعوت لا أبا لكم ما تنتظرون بنصـركم ربكم؟ أما دينٌ يجمعكم، ولا حمية تحشّـمكم، أقوم فيكم مستصـرخاً، وأناديكم متغوثاً، فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي أمراً حتى تكشف الأمور عن عواقب المساءة فما يدرك بكم ثأر، ولا يبلغ

بكم مرام.

أو كقوله:

فتداكوا عليّ تداك الإبل يوم وردها، وقد أرسلها راعيها وخلعت مثانيها، حتى ظننت أنهم قاتليّ أو بعضهم قاتل بعض

1– سورة التوبة، الآية: 41

لديّ، و قد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره، حتى منعني القوم، فما وجدتني يسعني إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه و آله و سلم فكانت معالجة القتال أهون عليّ من معالجة العقاب، و موتات الدنيا أهون عليّ من موتات الآخرة.

و قوله في كتاب إلى أمراء جيوشه:

ألا و إن لكم عندي ألّا احتجز دونكم سراً إلا في حرب و لا أطوي دونكم أمراً إلا في حكم، و لا أؤخر لكم حقاً عن محلّه، و لا أقف به دون مقطعه و أن تكونوا عندي في الحق سواء، فإذا فعلت ذلك وجبت لله عليكم النعمة ولي عليكم الطاعة ولا تنكصوا عن دعوة و لا تفرطوا في صلاح وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق.

5- كثرة الصيغ الإنشائية و هي الأمر و النهي و الاستفهام والترجّي والتمني والنداء والقسم والتعجب وهي أقوى من الصيغ الخبرية تجديداً للسامعين وأشد تنبيهاً وأكثر إيقاظاً

وأدعى إلى مطالبتهم بالمشاركة في القول وفي الحكم وهي في الوقت نفسه أدق في تصوير مشاعر الخطيب و أفكاره لأن أفكاره و مشاعره المتنوعة في حاجة إلى أساليب متغايرة تفصح عنها، ثم إن مغايرة الأساليب تستتبع مغايرة في نبرات الصوت وفي الوقفة والإشارة وطريقة الإلقاء. و هذا كله عون على الوضوح من ناحية وعلى التأثير في السامعين من ناحية أخرى».

ذلك ما قاله الدكتور أحمد محمد الحوفي، ولكي يعزز قوله بالدليل أورد أمثلة على ما قال وهي:

ص: 36

1 – من الأمر قوله: فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة القرظ.

و فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته و وقائعه ومَثُلاته، و اتعظوا بمثاوي خدودكم و مصارع جنوبكم واستعيذوا بالله من لواقح الكِبر، كما تستعيذون من طوارق الدهر. و قوله: ليتأسّ صغيركم بكبيركم و ليرأف كبيركم بصغيركم.

– من النهي قوله: فلا تجعلن للشيطان فيك نصيباً، و لا عن نفسك سبيلاً. و قوله: ولا ترخصوا لأنفسكم، فتذهب بكم الرخص مذاهب الظلمة و لا تداهنوا فيهجم بكم الإدمان على المعصية، و لا تحاسدوا فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب ولا تباغضوا فإنها الحالقة.

و فلا يغرنكم ما أصبح فيه أهل الغرور، فإنما هو ظل ممدود إلى أجل معدود.

و فإن نهضوا فانهضوا و لا تسبقوهم فتضلوا و لا تتأخروا عنهم فتهلكوا.

و «عباد الله لا تركنوا إلى جهّالكم ولا تركنوا إلى أهوائكم».

و لا يؤنسنكم إلا الحق و لا يوحشنكم إلا الباطل.

و فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الجرب.

و فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة ولا تتحفظوا مني بما

يُتحفظ به عند أهل البادرة و لا تخالطوني بالمصانعة و لا تظنوا بي استثقالاً في حقٍ قيل لي فلا تكفّوا عن مقالةٍ بحق أو مشورة بعدل.

3- ومن الاستفهام قوله: أبعد إيماني برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و هجرتي معه، و جهادي في سبيل الله أشهد على نفسي بالكفر، لقد ضللت، إذن، وما أنا من المهتدين.

و قوله «هل يُحس به - ملك الموت - إذا دخل منزلاً؟ أم تراه إذا توفّى أحداً؟ بل كيف يتوفى الجنين في بطن أمه؛ أيلج عليه من بعض جوارحها؟ أم الروح أجابته بإذن ربها؟ أم ساكن معه في أحشائها؟ كيف يصف إلهه من يعجز عن صفة مخلوق مثله؟.

وقوله أين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى والأبصار اللامحة إلى منازل التقوى؟

أين القلوب التي ذهبت لله و عوقدت على طاعة الله؟

4 - ومن الترجي قوله: «فاسمعوا قولي وعوا منطقي عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا اليوم تنتضى فيه السيوف.

و لعل الله أن يصلح في هذه الهدنة أمر هذه الأمة».

و لا تعجل في عيب أحد بذنبه فلعله مغفورٌ له، ولا تأمن على نفسك صغير معصية فلعلك معذبٌ عليها.

و هيهات أن يغلبني هواي و يقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعل بالحجاز و باليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع.

5 – و من التمني قوله: يا أشباه الرجال و لا رجال ... لوددت أني لم أركم و لم أعرفكم.

و قوله: «قد دارستكم الكتاب و فاتحتكم الحجاج و عرفتكم ما أنكرتم و سوغتكم ما مججتم لو كان الأعمى يلحظ أو النائم يستيقظ».

6 – ومن النداء، قوله: «أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة».

وقوله: «فاتقوا الله عباد الله، و فروا إلى الله من الله».

و قوله، يخاطب فئة من الناس: «أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم كلامكم يوهم الصم الصلاب و فعلكم يُطمع فيكم الأعداء ....

7– ومن القسم، قوله: «أما والله ما أتيتكم اختياراً ولكن جئت إليكم سوقاً».

و قوله: «والله لو قتلتم على هذا دجاجة لعظم عند الله قتلها، فكيف بالنفس التي قتلها عند الله حرام؟».

8 – و من التعجب قوله سبحانك ما أعظم شأنك، سبحانك ما أعظم ما نرى من ملكوتك و ما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانك، و ما أسبغ نعمك في الدنيا، وما أصغر عظيمه في جنب قدرتك وما أصغرها في نعم الآخرة».

و قوله: إستتموا نعم الله عليكم بالصبر على طاعته و المجانبة لمعصيته، فإن غداً من اليوم قريب.

وقوله: ما أسرع الساعات في اليوم، وأسرع الأيام في الشهر، وأسرع الشهور في السنة، و أسرع السنين في العمر.

و قوله: «فيا عجباً عجباً و الله يميت القلب، ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم و تفرقكم عن حقكم.

9 - السجع والترسل، جاء في إحدى خطبه عليه السلام: «فليقبل امرؤ كرامة بقبولها و ليحذر قارعة قبل حلولها، و لينظر امرؤ في قصير أيامه، و قليل مقامه في منزل حتى يستبدل به منزلاً، فليصنع لمتحوله و معارف منتقله، فطوبى لذي قلب سليم أطاع من يهديه و تجنب من يرديه و أصاب سبيل السلامة ببصر من بصره و طاعة هادٍ أمره، و بادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه و تقطع أسبابه و استفتح التوبة و أماط الحوبة، فقد أقيم على الطريق و هدي نهج السبيل.

و من قوله حين أنكر عليه الخوارج تحكيم الرجال: «إنّا لم نحكّم الرجال؛ إنما حكَّمنا القرآن، هذا القرآن إنما هو خط مستور بين الدفتين، لا ـ ينطق بلسان ولا بد له من ترجمان و إنما ينطق عنه الرجال، و لما دعانا القوم إلى أن نحكِّم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولي عن كتاب الله - سبحانه وتعالى - وقد قال الله - عز من قائل -: (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) (1). فردُّه إلى الله أن نحكِّم بكتابه وردّه إلى الرسول أن نأخذ بسنة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم في التحكيم ... فإنما فعلت ذلك ليتبين الجاهل،

1- سورة النساء، الآية: 59

و يتثبت العالم و لعل الله أن يصلح في الهدنة أمر هذه الأمة و لا تؤخذ بأكظامها أي مخارج الأنفاس.

10 - التوازن كثيراً ما تجيء الجمل في نهج البلاغة متوازنة بأن يتساوى عدد كلماتها، أو تتماثل أوزان نهاياتها، و هذا ضرب آخر من موسيقى التعبير يحببه إلى السمع ويقربه إلى

الذوق.

يقول الدكتور الحوفي: و التوازن أو الموازنة بهذا المعنى أهم من السجع، لأن السجع ورود أجزاء الفاصلتين أو الفواصل على حرف واحد مثل: القريب والحسيب والغريب، أما الموازنة بين أواخر الكلمات فهي مثل: القريب و الشهيد و الجليل. فالوزن واحد والحرف الأخير مختلف.

و من الموازنة قول الإمام علي عليه السلام: «لم يَؤُده خلق ما ابتدأ، و لا تدبير ما ذرأ و لا وقف به عجز عما خلق، و لا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر بل قضاء متقن و علم محكم، و أمر مبرم.

وقوله: إن غاية تنقصها اللحظة و تهدمها الساعة، الجديرة بقصر المدة، وإن غائباً يحدوه الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة، و إن قادماً يقدم بالفوز أو الشقوة لمستحق لأفضل العدة، فيا لها حسرة على ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة، و أن تؤديه أيامه إلى الشقوة نسأل الله - سبحانه - أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره النعمة، و لا تقصر عن طاعة ربه غاية و لا تحل به بعد الموت ندامة و لا كآبة.

و قوله: إن الزاهدين في الدنيا تبكي قلوبهم، وإن

ضحكوا ... و يشتد حزنهم و إن فرحوا و يكثر مقتهم أنفسهم و إن اغتبطوا بما رزقوا.

و يقول الدكتور الحوفي: «وقد يجيء التوازن في داخل الجمل لا في نهاياتها، فيؤلف انسجاماً في نطق الكلمات وفي سماعها، مثل قوله عليه السلام: الحمد لله غير مقنوط من رحمته و لا

مخلوٌ من نعمته، و لا ميؤوسٌ من مغفرته، ولا مُستَنكَفٌ عن عبادته، الذي لا تبرح منه رحمة، ولا تُفقد له نعمة.

فقد وازن عليه السلام بين مقنوط و مخلوق و ميؤوس، إضافة إلى السجع، كما استعرض الدكتور الحوفي مطالب بلاغية أخرى كالجناس و الطباق و المقابلة و التوشيح ... مما ورد في خطب و أحاديث و مراسلات و وصايا الإمام علي عليه السلام. كما استعرض التشبيه و الكناية والاستعارة والمجاز ... التي برع فيها الإمام عليه السلام براعة منقطعة النظير في شتى شؤون المعرفة و العقل والنفس وفي مختلف قضايا البشر والدين والدنيا.

و قبل الدكتور الحوفي قال معاوية، وهو يرد على ابن محفن عندما قال له: جئتك من عند أعيا الناس قال له معاوية: ويحك، كيف يكون أعيا الناس فوالله ما سن الفصاحة لقريش غيره وقبل معاوية قال الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه و آله و سلم: أنا مدينة العلم، أو الحكمة وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابه صدق رسول الله و كذب محمود محمد شاكر في ادعائه إن في قول الإمام «غثاثة».

اللهم اشهد إن كانت البلاغة بفروعها والفصاحة بأصالتها،

و نقائها وصفائها التي وردت على لسان إمام البلاغة و سيد الفصحاء الإمام علي عليه السلام، و التي وقفنا على بعضها في ما نقلنا من فقرات ... أقول: إن كانت تلك البلاغـة و الفصاحة «غثاثة» فأنا أول المتمسـكين بها؛ فغث الإمام سـمين و سـمين أعدائه غث، لأنه رضع لبانها من منبع النبوة الصافي فوضع لنا أسسها و شيد بنيانها فكانت أقوى الأسس و أجمل بنيان و أحكمه.

و لا نريد أن نضـيف شـيئاً إلى ما جاء به الدكتور الحوفي عسـى أن تكون تلك الشواهد على بلاغة و فصاحة الإمام علي عليه السلام شموعاً تنير درب التائهين الحيارى أمثال محمود محمد شاكر وقاه الله يوم لا مفر منه.

3 - عائدية نهج البلاغة:

لقـد تكلمنا في الفقرة (1 - جامع (النص) و بيّنا بالـدليل الواضـح أن الشـريف الرضـي - و ليس المرتضـى - هو جامع النهج و رددنا على المشـككين في كـون النهـج للإمـام علي عليـه السـلام أو أن بعضه له و بعضه ليس له ثم رددنـا على محمـود محمـد شـاكر في فقرة (2 - الغثاثـة(وعلينا في هـذه الفقرة أن نتبسط في الكلام فنبين - بالحجـة الدامغـة، كما هو منهجنا دائماً - أن ما في نهـج البلاغة من ألفه إلى يائه يعود إلى الإمام علي عليه السلام و للرضي جهد الجامع لا الواضع.

و قبل أن نورد ما عندنا من دليل على عائدية ما في النهج إلى الإمام علي عليه السلام علينا أن نستأنس بأقوال قيلت في بلاغته

و فصاحته عليه السلام لأنها ستساعدنا على فهم شخصية علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا المجال و بذلك نكون قد مهدنا لموضوعنا و سهلنا على المشككين كثيراً من مغاليق أفهامهم ليمكن فتحها ليطلوا على رحاب الحقيقة الواضحة.

لنقرأ قول غيره فيه:

قال معاوية بن أبي سفيان: ما رأيت أحداً يخطب ليس محمداً أحسن من علي إذا خطب، فوالله ما سن الفصاحة لقريش غيره.

و قال الحارث الأعور: والله لقد رأيت علياً و إنه ليخطب قاعداً كقائم ومحارباً كمسالم.

و قال الشريف الرضي: في مقدمة النهج: وعلى أمثلته حدا كل قائل خطيب وبكلامه استعان كل واعظ بليغ.

أما ابن الجوزي فقال في التذكرة كان علي ينطق بكلام قد حفَّ بالعصمة، و يتكلم بميزان الحكمة كلام ألقى الله عليه المهابة، فكل من طرق سمعه راقه فهابه، وقد جمع الله له بين الحلاوة و الملاحة والطلاوة و الفصاحة لم تسقط له كلمة ولا بارت له حجة أعجز الناطقين، وحاز قصب السبق في السابقين.

ولنقرأ قول محمد بن طلحة الشافعي في مطالب السؤول الفصاحة تنسب إليه – أي الإمام علي عليه السلام – والبلاغة تنقل عنه و البراعة تُستفاد منه، و علم البيان والمعاني غزيرة فيه.

و نكرر قول عبد الحميد الكاتب: إذ سُئل ما الذي خرجك في البلاغة؟

قال: حفظت سبين خطبة من خطب الأصلع ففاضت ثم فاضت.

و كذا قال ابن المقفع.

و لنقرأ قول ابن أبي الحديد المعتزلي في طيات شرح «النهج»: «و اعلم أننا لا يخالجنا الشك في أنه عليه السلام أفصح من كل ناطق بلغة العرب من الأولين و الآخرين إلا من كلام الله سبحانه، و كلام رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ... حتى يقول: و اعلم أن تكلف الاستدلال على أن الشمس مضيئة يُتعب، و صاحبه منسوب إلى السفه، و جاحد الأمور المعلومة علماً ضرورياً أشد سفهاً ممن رام الاستدلال بالأدلة النظرية عليها.

و أخيراً قال محمد عبده في مقدمة شرح نهج البلاغة مهما اختلفت الناس في شيء من مناقب أمير المؤمنين و فضائله وميزاته وخصائصه فإنهم لا يختلفون بأنه إمام الفصحاء و سيد البلغاء و إن كلامه أشرف الكلام و أبلغه بعد كلام الله و كلام نبيه و أغزره مادة و أرفعه أسلوباً و أجمعه لجلائل المعاني.

تلك كانت نتف من أقوال منها من مضطرين و منها من منصفين ولكنها جميعاً كانت تقول: إن علي بن أبي طالب عليه السلام سيد البلغاء و سيد الفصحاء و إذا ما عرفنا أن فترة تولي الإمام عليه السلام كانت فترة صاخبة؛ فمن حرب الجمل إلى حرب صفين فالنهروان فإنه من الطبيعي أن يعالج الإمام عليه السلام تلك الأحداث

بكتبه و خطبه و وصاياه. و هي مسألة طبيعية لكل حاكم و في كل عصر، و إذا كان ذلك طبيعي – و هو طبيعي فعلاً – فإن من الطبيعي جداً أن ينبري من المختصين إلى جمع تلك الخطب و الأحاديث و المراسلات و الوصايا، سواء في زمانه أو بعد زمانه كوثائق تاريخية عن عهده عليه السلام.

و قد بلغ اهتمام الناس بكلامه عليه السلام و شغفهم به أن أطلقوا على بعض خطبه أسماء خاصة للتعريف بها و التمييز بينها مثل:

«التوحيد، و الشقشقية و الهداية والملاحم واللؤلؤة والغراء، والقاصفة و الافتخار والأشباح والدرة اليتيمة والأقاليم والوسيلة، والطالوتية والقصبية والنخيلة والسليمانية والناطقة والدامغة والفاضحة والمخزون والديباج والبالغة، والمنبرية والمكاييل، والمؤنقة، – أي الخالية من الألف – و العارية عن النقط، والزهراء.

إذن، اهتم الناس بجمع خطب و أحاديث و كتب و وصايا الإمام عليه السلام و لم يكن الشريف الرضي رحمه الله هو السابق إلى جمع كلام أمير المؤمنين علي عليه السلام و لا الأول في تدوينه؛ فقد عني الناس به عناية بالغة و حظي بما لم يحظ به كلام أحد من البلغاء – على كثرتهم – قبل الإسلام و بعده، ودوّنوه في عصره، وحفظوه في أيامه وكتبوه ساعة إلقائه.

هذا زيد بن وهب الجهني وكان من أصحابه، وشهد معه بعض مشاهده جمع كتاباً من،خطبه سلام الله عليه وهذا الحارث الأعور، صاحبه و كان من المنقطعين إليه والمجاهدين

بحبه و تفضيله على غيره، روى عنه و أخذ من علومه الذي توفى سنة 65 هـ. فقد دوّن بعض خطبه عليه السلام ساعة إلقائها.

و هذا الأصبغ بن نباتة المجاشعي، وكان من خاصة أمير المؤمنين، روى للناس عهده للأشتر النخعي لما ولّاه مصر، و وصيته لولده محمد ابن الحنفية وشريح القاضي وكميل بن زياد النخعي، ونوف البكالي وضرار بن ضمرة الضبائي ... كلهم سمعوا بعض كلامه فحفظوه و رووه للناس كما سمعوه.

و ذكر الجاحظ: إن خطب علي عليه السلام كانت مدونة محفوظة مشهورة.

و قال ابن واضح في كتابه مشاكلة الناس لزمانهم كان علي بن أبي طالب عليه السلام، مشتغلاً أيامه كلها في الحرب إلّا أنه لم يلبس ثوباً جديداً، ولم يتخذ ضيعة، ولم يعقد على مال (أي لم يجمعه) إلّا ما كان بينبع و البعبعة (عين بالمدينة) مما يتصدق به و حفظ الناس عنه الخطب، فإنه خطب بأربعمائة خطبة، حفظت عنه، و هي التي تدور بين الناس، و يستعملونها في خطبهم.

و أحصى المسعودي – في مروجه – ما كان محفوظاً من خطبه علم فقال:

و الذي حفظ الناس من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة و نيف و ثمانين.

و قال سبط بن الجوزي الحنفى فى تذكرة الخواص: أخبرنا

الشـريف أبو الحسن علي بن محمد الحسـيني باسـناده إلى الشـريف المرتضى قال: وقع إليّ من خطب أمير المؤمنين عليه السلام أربعمائة خطبة.

و ذكر القطب الراوندي أنه وجد بمكة كتاب في واحد و عشرين جزءاً كله في كلام الإمام علي عليه السلام.

تلك هي أقوال من تقـدموا على الشـريف الرضـي بزمان طويل، إذ أكّـدت أن خطب الإمام علي عليه السـلام كانت مدونة و محفوظة و قد أربت على أربعمائة خطبة. و إذا ما علمنا أن الشـريف الرضـي لم يختر منها إلا (121) خطبـة فقط ظهر لنا جلياً أن ما في النهج هو للإمام علي عليه السـلام و ليس من وضع الشـريف الرضـي أو غيره، ما خلا ما صرّح به ابن أبي الحديد؛ أنه اختار جملاً قصاراً في آخر النهج منها للإمام و منها لغيره و لكنها تشـبه كلامه، و ليته ما اختارها وليته ما صرّح به لأنها كانت قميص عثمان في يد المشككين ولكن الحقيقة تبقى كما هي لا يمكن نكرانها إذا ما انبرى لها من يكشف عن وجهها الناصع، و ها نحن فعلنا ذلك مع من فعل من قبلنا.

و زيادة في التأكيد على أن ما في النهج هو للإمام علي عليه السـلام نشـير إلى بعض المؤلفات التي أُلفت قبل «النهج» الذي ألّفه الشـريف الرضي، و كلها تتحدث عن كلام الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام وهي:

1- خطب أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر في الجمع و الأعياد و غيرها لزيد بن وهب الجهني، و هو أول كتاب جمع

في كلامه عليه السلام، إذ إن مؤلفه أدرك الجاهلية و الإسلام، و توفي سنة 96هـ. (1).

2 – خطب أمير المؤمنين عليه السلام المروية عن الإمام الصادق عليه السلام. وقد وصلت نسخة من هذا الكتاب إلى السيد علي ابن طاؤس (عليه الرحمة) و كتب عليها أنها كتبت بعد المائتين من الهجرة. وعن هذا الكتاب والذي بعده نقل الرضي خطبة الأشباح في نهج البلاغة (2)

3 – خطب أمير المؤمنين عليه السلام، لمسعدة بن صدقة العبدي، و هو من علماء الجمهور، و كان هذا الكتاب موجوداً إلى زمن السيد هاشم البحراني المتوفى سنة 107 أو 109 و نقل عنه كثيراً في تفسيره (البرهان) و ذكره في مقدمة كتابه المذكور.

4 – كتاب الخطبة الزهراء لأمير المؤمنين لأبي مخنف لوط ابن يحيى بن مخنف بن سليم الأزدي شيخ أصحاب الأخبار في الكوفة المتوفى سنة 157 هـ.

5 – خطب أمير المؤمنين لإسماعيل بن مهران بن أبي النصر زيد السكوني الكوفي ذكره النجاشي في فهرسه.

6 – خطب أمير المؤمنين عليه السلام: للسيد الجليل عبد العظيم بن عبدالله بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

7 – خطب علي عليه السلام: لإبراهيم بن الحكم بن ظهير

1- انظر نهج البلاغة 659/1

2- الإمام علي، روائع نهج البلاغة

الفزاري. وقد ذكره الطوسي في فهرسه و هو من أصحاب أواخر القرن الثاني.

8 – خطب أمير المؤمنين عليه السلام: برواية الواقدي أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد المدني المتوفى سنة 207.

9 – خطب علي عليه السلام: لأبي الفضل نصر بن مزاحم المنقري الكوفي العطار، و كان من علماء الأخبار و شيخ أصحاب المغازي و السير وصاحب كتاب «صفّين» الذي احتوى على كثير من خطب الإمام و كتبه و وصاياه يوافق بعضها بعض ما جاء في نهج البلاغة و هو من علماء القرن الثاني. إذ قال إبن النديم عنه إنه من طبقة أبي مخنف، و قيل إن وفاته كانت سنة 202هـ. ولا شك أن الرضي اعتمده مصدراً من مصادره في (النهج)

1 – خطب علي كرّم الله وجهه: لأبي المنذر بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة 205 هـ و قيل 206 هـ. و كان قد نشأ في الكوفة، وهو نسّابة و عالم بأخبار العرب و أيامها، و قد اتصل ابوه بالإمامين الباقر و الصادق عليهم السلام، فأخذ هشام عن أبيه أخباره و علومه، و لأنه من بيت معرفة بالتشيع، لأهل البيت عليهم السلام لم يدخله الذهبي بين الحفاظ المشاهير و سماه محمد بهجة الأثري – من المعاصرين – ب_(الزنيم) في حاشيته على بلوغ الإرب 5/2. و لهذا السبب انمحت آثاره.

11 – خطب علي وكتبه إلى عمّاله لأبي الحسن علي بن محمد المدائني، و قد ذكره إبن النديم في فهرسه وقد صنّف كتباً كثيرة منها: خطب النبي صلى الله عليه و آله و سلم و خطب علي وكتبه إلى عماله

و كتاب من قتل الطالبيين وكتاب الفاطميات.

و قال صاحب الكنى و الألقاب إنه قد توفي سنة 225 هـ.

12 - خطب أمير المؤمنين عليه السلام: لصالح بن حماد الرازي وقد عدّه النجاشي في فهرسه من رجال المائة الثالثة، إذ كان قد صحب الإمام الحسن العسكري عليه السلام

13 - مائة كلمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد اختارها الجاحظ من كلام الإمام علي عليه السلام، واختار الرضي منها النهج وذكرها الخوارزمي في المناقب بسنده عن أبي بكر محمد بن دريد صاحب أبي عثمان الجاحظ فقال: كان الجاحظ يقول لنا زماناً إن لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب مائة كلمة كل كلمة منها تفي بألف كلمة من محاسن كلام العرب، قال: وكنت أسأله دهراً بعيداً أن يجمعها لي و يمليها علي، و كان يعدني بها، و يتغافل عنها، ظناً بها ... فلما كان آخر عمره أخرج جملة الكلمات المائة هذه ثم ذكرها.

وروي ذلك في الحدائق الوردية عن كتاب جلاء الأبصار عن الحاكم بإسناده إلى الجاحظ.

و لم يرض الآمدي عن الجاحظ لاقتصاره على هذه المائة و قال عنها:

إنها بعض من كل وطلّ من وبل مما دعاه إلى تأليف كتابه غرر الحكم و درر الكلم.

14 - رسائل أمير المؤمنين عليه السلام و أخباره و حروبه ذكره

الطوسـي في فهرسه بأنه إبراهيم بن عاصم بن سـعد بن مسـعود الثقفي الكوفي، و كان زيـدي الرأي ثم تحول إلى الإمامية، كما قال صاحب تأسيس الشيعة، و ذكر وفاته بأنها في سنة 283هـ.

15 - الخطب المعربات: لإبراهيم بن جلال بن عاصم بن مسعود الثقفي صاحب كتاب رسائل أمير المؤمنين عليه السلام و أخباره وحروبه الذي ذكرناه بالرقم (14).

قال عنه السـيد هبة الدين في كتابه «ما هو نهج البلاغة» و هو ينقل عن النجاشي: إن هذا الكتاب من جملة المؤلفات في كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

و يحتمل عبد الزهراء الحسيني الخطيب في كتابه «مصادر نهج البلاغة و أسانيده» أن يكون إسم هذا الكتاب «الخطب المقريات» إذ قال: و قد يسمى هذا الكتاب بالخطب المقريات (بالقاف بعد الميم والمثناة التحتانية بعد الراء)

16 - خطب أمير المؤمنين عليه السـلام: ذكر النجاشـي لأبي إسحاق إبراهيم بن سليمان بن عبيد الله بن خالد الخراز الكوفي النهمي (نسبة إلى بطن من همدان) بعنوان (الخطب) و ذلك عن رواة آخرهم حميد بن زياد المتوفى سـنة 310هـ مما يدل على أن النهمي كان في أواخر القرن الثالث الهجري، و ذكره السيد هبة الدين في كتابه (ما هو نهج البلاغة) بأنه لأمير المؤمنين عليه السلام.

17 - خطب أمير المؤمنين عليه السلام مع شرحها: للقاضي النعمان المصري المتوفى سنة (363هـ) عدّه من تصانيفه في كتابه (الهمة في معرفة الأئمة) و قد ألّفه سنة 310هـ. و كان الرضي قد ولد سنة

359هـ. و هذا يعني أن الكتاب لم يكن شرحاً لـ «نهج البلاغة» كما صدر عن البعض، و قد نبّه إلى ذلك صاحب كتاب «الذريعة».

18 - خطب امير المؤمنين عليه السلام.

19 - مواعظ علي عليه السلام.

20 - رسائل علي عليه السلام، و قد ذكره النجاشي في فهرسه.

21 - كلام علي عليه السلام.

22 - الملاحم، و قد ذكره النجاشي في فهرسه.

قال عبد الزهراء الخطيب في كتابه مصادر نهج البلاغة و أسانيده و هو يعتمد كتاب المراجعات الريحانية للإمام كاشف الغطاء مصدراً له:

إن هذه الكتب - و هو يشير إلى الخمسة المذكورة آنفاً - كلها مجموعة من كلام علي عليه السلام، ألفها الشيخ عبد العزيز يحيى الجلودي البصري المتوفى سنة (332هـ)، و هو من أكابر علماء الإمامية و الرواة للآثار و السير عدد له علماء الرجال ما ينيف على مائتي كتاب بل ما يقرب من ثلاثمائة كتاب كلها من عجائب الكتب. منها أربعون كتاباً فيما يتعلق بخصوص أمير المؤمنين عليه السلام في غزواته مع النبي صلى الله عليه و آله و سلم. و حروبه من الجمل وصفين والغارات والحكمين وبني ناجية وما نزل في الخمسة، و تزويج فاطمة، و من أحبه و من أبغضه و من سبه من سبّه الخلفاء، و كتاب التفسير عنه، و ما نزل في القرآن في خصوصه، و كتاب شعره و كتاب خطبه و خلافته و عمّاله و ولاته والشورى وما كان بينه و بين عثمان

وقضائه، و رسائله و من روى عنه من الصحابة، وكتاب شيعته و من مال بعده.

أفرد لكل هـذه المـذكورات كتاباً، ثم على مثل هـذا ألف في كل واحد من أهل البيت كتاباً ... و له عشـرات من الكتب تتعلق بعبد الله بن عباس ... ثم بقية كتبه في سائر العلوم و أحوال سائر الأمم عامة و العرب خاصة و الشعراء على الأخص.

بعد تلك الجولة مع الكتب المؤلفة في خطب و احاديث أمير المؤمنين علي عليه السـلام قبل جمع نهج البلاغة، بل قل قبل ولادة الشريف الرضـي و هي بعض من كل إذ لا شك أن ثمة غيرها قد أُلِّفت و لكن عوادي الزمن لم تحفظها لنا مثلما لم تحفظ كثيراً مما ذكرنا عناوينها. و ثمة الكتب التي أُلِّفت بعد صدور نهج البلاغة للرضي، و لكنها كانت مستقياتها في كثير منها غير نهج البلاغة و غير الشريف الرضي.

أقول ... بعد تلك الجولة: ألا يكفي ذلك دليلاً على أن دور الشريف الرضي كان دور الجامع فحَسْب لمحتويات نهج البلاغة؟

و إن تلك المحتويات هي من كلام الإمام علي عليه السـلام بقضـها و قضيضها و من ألفها إلى يائها؟ و أخيراً لا بد لي أن أتساءل بما تساءل به عبد الله حسين في كتابه (مصادر نهج البلاغة):

أين تلك المؤلفات الموضوعـة في خطب الإمام علي و كلامه؟ و أين ذهبت الأربعمائـة من كلماته؟ أليس في كل هذا ما يؤكد أن ما اختاره الرضي في نهج البلاغة هو بعض ما كان

مدوناً و محفوظاً و مشهوراً بين الناس؟ أليس هذا ما يدفع أولئك القائلين بأن ما في النهج موضوع و منحول على لسان الإمام علي؟».

ثم ماذا نقول عن أقوال الأدباء و المفكرين و الفلاسفة في نهج البلاغة و في كونه من كلام علي عليه السلام ؟ هل نضع هؤلاء كلهم «خانة» الخطأ؟

لنقرأ أقوالهم عسى ان تكون – ليس رداً على المشككين – بل شمساً تضيء لمن يريد أن يستضيء بنور الحقيقة، وتحرق من يصر على تعصيب عينيه بخرقة سوداء. و لأهمية تلك الأقوال نضعها تحت عنوان مستقل هو:

أقوال المنصفين في «نهج البلاغة»:

– قال ابن أبي الحديد: إن سطراً واحداً من «نهج البلاغة» يساوي ألف سطر من كلام إبن نباتة و هو الخطيب الفاضل الذي اتفق الناس على أنه واحد عصره في فنّه.

– وقال الدكتور زكي مبارك: لا مفر من الإعتراف بأن نهج البلاغة له أصل و إلّا فهو شاهد على أن الشيعة كانوا أقدر الناس على صياغة الكلام البليغ.

– أما خليل هنداوي فقال: لا نكاد نرى كتاباً انفرد بقطعات مختلفة يجمعها سلك واحد من الشخصية الواحدة و الأسلوب الواحد كما نراه في نهج البلاغة لذا نقرر ونكرر أن النهج لا يمكن ان يكون إلا لشخص واحد، نفخ فيه نفساً واحداً.

– وقال محقق شـرح النهج الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم في مقدمته: و منذ أن صدر هذا الكتاب عن جامعه، سار في الناس ذكره و تألق نجمه أشأم و أعرق و أنجد و أتهم وأعجب

به حيث كـان و تـدارسوه في كـل مكـان لمـا اشـتمل عليه من اللفظ المنتقى، والمعنى المشـرق و ما احتواه من جوامع الكلم في أسـلوب متساوق الأغراض محكم السبك، يعد في الذروة العليا من النثر العربي الرائع.

– وقـال السـيد الأميني في أعيان الشـيعة و غير خفي أن من يريـد اختيار أنفس الجواهر من الجواهر الكثيرة لا بـد أن يكون جوهرياً حاذقاً، فكان الرضـي باختياره أبلغ منه في كتاباته، كما قيل عن أبي تمام لما ديوان الحماسة من منتخبات شـعر العرب: إنه في انتخاباته أشعر منه في شعره.

و قـد لاقى ديوان الحماسة من القبول عند الناس إقبالاً كثيراً و شـرحه أعاظم العلماء، وكذلك نهج البلاغة من الشـهرة و القبول أهله، وشـرح بشروح كثيرة تنبو عن الإحصاء و كان مفخرة

هو من أعاظم مفاخر العرب والإسلام.

– في حين قال الشيخ محمد عبده في مقدمة شرحه على نهج البلاغة:

وقـد جمع الكتاب ما يمكن ان يعرض للكاتب و الخطيب أغراض الكلام فيه الترغيب و التنفير والسـياسات و الجدليات و الحقوق و أصول المدنية و قواعد العدالة والنصائح والمواعظ، فلا يطلب الطالب طلبته إلا ويرى فيها أفضلها، ولا تختلج فكرة إلا وجد فيها أكملها.

– وقال محمد حسن نائل المرصفي و نهج البلاغة ذلك الكتاب الذي أقامه الله حجة واضحة على أن علياً كان أحسن مثال حي لنور القرآن وحكمته وعلمه وهدايته وإعجازه وفصاحته.

اجتمع لعلي في هذا الكتاب ما لم يجتمع لكبار الحكماء، و أفذاذ الفلاسفة و نوابغ الربانيين من آيات الحكمة السابغة، وقواعد السياسة المستقيمة، ومن كل موعظة باهرة وحجة بالغة تشهد له بالفضل وحسن الأثر، وحسبنا ان نقول إنه الملتقى الفذ الذي التقى فيه جمال الحضارة، وجزالة البداوة، والمنزل المفرد الذي اختارته الحقيقة لنفسها منزلاً تطمئن فيه و تأوي إليه بعد أن زلت بها المنازل في كل لغة.

– و أوجز الشيخ ناصيف اليازجي في قوله فأبدع إذ قال:

أقرانك في العلم و الأدب، و صناعة الإنشاء فعليك بحفظ القرآن و نهج البلاغة».

– و قال الشيخ أبو الثناء شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي:

النهج البلاغة الكتاب المشهور الذي جمع فيه السيد المرتضى (كذا) الموسوي خطب الأمير كرّم الله وجهه و كتبه ومواعظه وحكمه وسمي نهج البلاغة كما أنه قد اشتمل على كلام يخيل أنه فوق كلام المخلوقين دون كلام الخالق عز وجل، قد اعتنق مرتبة الإعجاز و ابتدع أبكار الحقيقة و المجاز و لله در الناظم حيث يقول فيه:

ألا إن هذا السفر نهج البلاغة *** لمنتهج العرفان مسلكه جلي

على قمم من آل حرب ترفعت *** (كجلمود صخرٍ حطّة السيل من علِ)

- وثمة كلمة للأستاذ أمين نخلة في مقدمة كتابه مائة كلمة من كلام الإمام علي قال فيها:

إذا شاء أحد أن يشفي صبابة قلبه من كلام الإمام فليقبل عليه في النهج من الدفة إلى الدفة و ليتعلم المشي على ضوء نهج البلاغة.

- و قال محمد أمين النووي في كتابه جولات إسلامية»:

لقد كان علي في خطبه المتدفقة، يمثل بحراً خضمّاً من العلماء الربانيين و أسلوباً جديداً لم يكن إلّا لسيد المرسلين و طرق بحوثاً من التوحيد لم تكن تخضع في الخطابة إلا لمثله، فهى فلسفة سامية لم يعرفها الناس قبله فدانت لبيانه فسلست في منطقه وأدبه.

و قال: «حفظ علي القرآن كله، فوقف على أسراره و اختلط به لحمه ودمه والقارىء يرى ذلك في نهج البلاغة ويلمس فيه مقدار استفادة علي من بيانه وحكمته».

... و هكذا نجد في كلام علي الدين و السياسة و الأدب و الحكمة، و الوصف العجيب و البيان الزاخر.

- أما عباس محمود العقاد فقال في كتابه عبقرية الإمام:

في كتاب نهج البلاغة فيض من آيات التوحيد و الحكمة الإلهية تتسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد و أصول التأليه وحكم التوحيد.

- و أما محمد محيي الدين عبد الحميد لم يستطع إلا أن يقول:

نهج البلاغة هو ما اختاره الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه و هو الكتاب الذي ضم بين دفتيه عيون البلاغة و فنونها وتهيأت به للناظر فيه أسباب الفصاحة ودنا منه قطافها، إذ كان من كلام أفصح الخلق - بعد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم - منطقاً و أشدهم اقتداراً و أبرعهم حجة وأملكهم لغة يديرها كيف شاء الحكيم الذي تصدر الحكمة عن بيانه و الخطيب الذي ملأ القلب سحر بيانه العالم الذي تهيأ له من خلاط الرسول، وكناية الوحي، والكفاح عن الدين بسيفه ولسانه منذ حداثته ما لم يتهيأ لأحد سواه.

- و نعود إلى الدكتور جورج جرداق، إذ نقلنا رأيه في الإمام علي فننقل هنا رأيه في نهج البلاغة و هو يقول (1):

نهج البلاغة آخذ من الفكر و الخيال والعاطفة آيات تتصل بالذوق الفني الرفيع ما بقي الإنسان وما بقي له خيال وعاطفة وفكر؛ مترابط بآياته متساوق متفجر بالحس المشبوب والإدراك

1- انظر كتاب الفلسفة الإسلامية

البعيد، متدفق بلوعة الواقع و حرارة الحقيقة و الشوق إلى معرفة ما وراء هذا الواقع؛ متآلف يجمع بين جمال الموضوع وجمال الإخراج حتى ليندمج التعبير بالمدلول والشكل بالمعنى إندماج الحرارة بالنار والضوء بالشمس والهواء بالهواء، فما أنت إزاءه إلا ما يكون المرء قبالة السيل إذ ينحدر والبحر إذ يتموج والريح إذ تطوف أو قبالة الحدث الطبيعي الذي لا بد له أن يكون بالضرورة إلى غير كَوْن.

بيـان لو نطق بـالتقريع لانقضّ على لسان العاصـفة انقضاضاً! ولو هـدد الفساد والمفسـدين لتفجّر براكين لها أضواء و أصوات! ولو انبسط في منطق لخـاطب العقول و المشـاعر فأقفـل كـل بـاب على حجّـة غير ما يتبسط فيه! ولو دعا إلى تأمّل لرافق فيك منشأ الحس و أصل التفكير فساقك إلى ما يريده سوقاً، و وصلك بالكون وصلاً، و وحّد فيك القوى للإكتشاف توحيداً، و هو لو راعاك لأدركت حنان الأب و منطق الأبوة و صدق الوفاء الإنساني و حرارة المحبة التي تبدأ و لا تنتهي!

أما إذا تحدث إليك عن بهاء الوجود و جمالات الخلق و كمالات الكون، فإنما يكتب على قلبك بمداد من نجوم السماء!».

أحس علي إحساساً مباشـراً عميقا بين الكائنات روابط لا تزول إلا بزوال هـذه الكائنات و أن كل ما ينقض هذه الروابط ينقض معنى الوجود ذاته.

بيان هو بلاغة من البلاغة و تنزيل من التنزيل بيان اتصل

بأسباب البيان العربي ما كان منه و ما يكون حتى قال أحدهم في صاحبه إن كلامه دون كلام الخالق و فوق كلام المخلوق.

– و أكثر إنصافاً قول المستشرق الفرنسي هنري كوربال في النهج، فإذا كان جورج جرداق، و هو مسيحي، قال ما قال في النهج فإنه عربي تربطه بالإمام عليه السلام صلة الإنتماء القومي و لكن هنري كوربال لم يكن عربياً و لم تربطه بالإمام علي أية رابطة سوى نظرته الموضوعية المنصفة إلى ما ضمّه النهج من روائع خلّدها التاريخ، لنقرأ قول هذا الرجل المنصف هنري كوربال:

وتأتي أهمية هذا الكتاب أي النهج بالدرجة الأولى؛ بعد القرآن و أحاديث النبي، ليس بالنسبة للحياة الدينية في التشيع عموماً و حسب، بل بالنسبة لما في التشيع من فكر فلسفي، و يمكن اعتبار نهج البلاغة منهلاً من المناهل التي استقى منها المفكرون الشيعة ... و إنك لتشعر بتأثير هذا الكتاب بصورة جمّة من الترابط المنطقي في الكلام و من استنتاج النتائج السليمة؛ و خلق بعض المصطلحات التقنية العربية التي أدخلت على اللغة الأدبية و الفلسفية فأضفت عليها غنى و طلاوة، و ذلك أنها نشأت مستقلة عن تعريب النصوص اليونانية.

4 – التعريض بالصحابة

إن رابع عكازة تعكز المشككون عليها بنسبة ما في نهج البلاغة إلى الإمام علي عليه السلام هي التعريض بالصحابة»؛ فقد وقفنا على قول محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمته على النهج

ص: 61

إذ قال: إن في الكتاب من التعريض بصحابة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ما لا يسلم أن يصح صدوره عن مثل الإمام علي ....اهـ.

قبل الرد على محمد محيي الدين عبد الحميد و من تعكز على مثل عكازته يحسن بنا أن نتعرف على «الصحبة» لغة واصطلاحاً بشيء من الإيجاز؛ فالصحبة لغة هي المعاشرة. وتطلق على المعاشرة في الزمن القليل والكثير، ولذلك قيل صحبت فلاناً حولاً وشهراً ويوماً وساعة فيوقع إسم القليل على ما يقع منها كثير وتقع بين المؤمن و الكافر كما تقع بين المؤمن و المؤمن، قال تعالى: (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) (1). و قال تعالى مخاطباً مشركي قريش: (مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى) (2). و قال تعالى: (مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ) (3).

و قال صلى الله عليه و آله و سلم و قد أشير عليه بقتل عبد الله بن أُبي رأس المنافقين؛ بل نحن صحبته و نترفق به ما صحبنا و لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.

أما اصطلاحاً فهي: إن الصحابي من رأى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و قد أدرك الحلم فأسلم و عقل أمر الدين و رضيه و صحبه ولو ساعة من النهار.

و طبيعي أن من صحابة رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لم يكونوا على درجة

1- سورة الكهف، الآية: 37

2- سورة النجم، الآية: 2

3- سورة سبأ، الآية: 46

واحـدة من الإدراك المعرفي، بل حتى من الإخلاص والإيمان؛ ففيهم من بقي على صـلته الروحية والإيمانية بالرسول العظيم فكان مثالاً في القول و العمل في السـلم والحرب وفي الرقـة والشـدة وفيهم من نكص عن قيم الدعوة المحمدية وأدار وجهه عنها لينشـغل بمغريات الدنيا وهذا الفريق ما تحدث عنه البخاري في صـحيحه؛ إذ روى عن ابن مسـعود قال النبي صـلى الله عليه و آله و سـلم: أنا فرطكم على الحوض ليرفعنَّ إليّ رجال منكم حتى إذا هويت لأناولهم، إختلجوا دوني فأقول: ربي أصـحابي فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك و في رواية سهل بن سعد ... فأقول سحقاً لمن بدّل بعدي.

وقـد نزلت في ذلـك الفريق آيات كريمات تصـفهم بأنهم: (ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ) (1). (اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ) (2) و (سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) (3).

و ثمـة آيات كثيرة عرّضت ببعض من صـحبوا رسول الله صـلى الله عليه و آله و سـلم في حلّه و ترحاله، و قـد أفرد - جل وعلا - لهم سورة أسماها: المنافقين.

و إذا كانت ثمة إشارات تعريضية ببعض الصحابة في نهج

1- سورة التوبة، الآية: 48

2- سورة التوبة، الآية: 107

3- سورة التوبة، الآيتان: 95 - 96

البلاغة، فالقرآن الكريم – كما مر بنا – قد عرّض بهم وهو سبق «النهج»، فضلاً عن أن أصحاب الصحاح و الأسانيد المعتبرة قد نقلوا لنا كثيراً من ذلك التعريض؛ فالإمام ليس وحده من عرض بالمنافقين من الصحابة، فما جاء في النهج إذن، (يصح صدوره عن مثل الإمام علي) بعكس ما تصور محمد محيي الدين عبد الحميد و غيره من المشككين، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم – كما بينا – ليسوا على درجة واحدة من الإيمان و الإخلاص، و الصحابة أنفسهم تلاعنوا و تسابوا وتناقدوا فيما بينهم، و هذا ليس بالأمر الغريب لأن مشاربهم مختلفة و دخولهم في الإسلام لم يكن – أصلاً – متفقاً تمام الإتفاق في الهدف و المرمى، فضلاً عن أن لكل إنسان رؤيته في تفاصيل الحياة الفكرية – خاصة – لذلك فإن النقد والطعن واللعن بل حتى التكفير لم يكن هدفه نيل طرف من طرف آخر لغرض النيل فحسب بل بسبب اختلاف النظرة إلى مفردات الحياة ودرجة الإرتفاع إلى مستوى المتغيرات الجديدة. والدعوة المحمدية ليست بالمتغير الجديد السهل على مجتمع كان غارقاً في جهله العقائدي و غافياً غفوة عميقة على معتقداته حتى جاء الإسلام فأحدث خضّة عنيفة في ذلك المجتمع فاستوعب فريق تلك القيم الجديدة بعمق إيماني واضح وتأرجح فريق آخر فجارى المتغيرات الجديدة تلك للحفاظ على مركزه الإجتماعي و هذا ما يحصل في كل زمان ومكان.

وإلا ـ ماذا نقول عن طلحة والزبير ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وغيرهم قبلهم وبعدهم هل يتساوون في درجة الإيمان مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم؟ أمثال بلال الحبشي وسلمان

المحمدي و عمار بن ياسر و علي بن أبي طالب و غيرهم من الصحابة النظاف من تلوث أفكار الجاهلية الأولى؟

فالصحابة «قوم من الناس لهم ما للناس وعليهم ما عليهم».

فهل يقف الإمام علي عليه السلام – وهو المسلم الأول و المؤمن الأول والمجاهد الأول والمدافع الأول عن قيم الإسلام قولاً و عملاً بشواهد تاريخية لا تُرَد – أقول ... هل يقف مثل ذلك الرجل مكتوف اليدين حيال ما يرى من افتئات على الإسلام و حرف مبادئه و محاولة إفراغه من محتواه من قبل أُولئك الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و زمناً قلّ أو كثر فسمّوا ب_ «الصحابة»؟

إن التاريخ حفظ لنا، وما يزال يسجل شواهد عن أن كثيراً ممن فجروا الثورات و أحدثوا الإنقلابات السياسية في هذا القطر أو ذاك وفي هذا العصر أو غيره كانوا في البداية (أصحاباً) تربطهم صحبة الوسيلة و الغاية، إلا أن عقدهم سرعان ما ينفرط بعد تلك الثورات والإنقلابات فتبدأ السقوطات على الطريق وتبدأ التصفيات الجسدية والسياسية والفكرية عموماً فيما بينهم، فماذا نسمي ذلك؟

إنه قانون الحياة الطبيعي لأن الناس كلهم ليسوا سواء في النظر و الرأي و المشرب و الإنحدار الطبقي و النَسَبي، وعند انخراطهم في بوتقة الثورة أو الإنقلاب نراهم يختلفون حول هذه المسألة أو تلك فيتساقطون على الطريق، لذلك قيل في المصطلح السياسي الثورة تأكل أبناءها».

فإذا ما عرفنا ذلك فإنه سيتوضح لنا، بيسر، أن صحابة الرسول صلى الله عليه و آله و سلم – وهم ليسوا على درجة واحدة من الوعي والإدراك

والاستيعاب – لا بـد – والأمر كذلك – أن يختلفوا فيما بينهم، على هذه المسألة أو تلك، وإذا ما علمنا أن ثورة الإسـلام تفوق أية ثورة قبلها وبعدها لما أحدثته من انقلاب جذري في الكم والكيف، أدركنا فوراً أن السقوطات على الطريق أمر طبيعي أيضاً.

لذلك إن أي نقد أو تعريض، كما يسمونه، لأولئك الذين لم يستطيعوا مواجهة معطيات الثورة، أمر طبيعي كذلك.

وإذا ما عدنا إلى نهج البلاغة نجد أن جميع التعريض والسباب – على حد تعبيرهم ما هو إلا نقد بنّاء، ووصف للأعمال بلغة مهذبة، و ألفاظ متزنة لم يخرج بها عن حق، ولم يدخل فيها بباطل ونظرة واحدة في ثنايا الكتاب تغني عن سرد الشواهد، وتسطير الأدلة.

و إذا ما وجد في ثنايا النهج ما يسـمونه «التعريض»، و هو نقد كما بينا، فإن في النهج إشادة بالصـحابة الذين ترسـموا خطى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و ساروا على منهجه حتى النهاية، كقوله صلى الله عليه و آله و سلم:

لقد رأيت أصحاب محمد فما أرى أحداً منكم يشبههم. وقوله عليه السلام:

و أوصـيكم بأصحاب محمد الذين لم يحدثوا حدثاً ولم يأووا محدثاً ولم يمنعوا حقاً، فإن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أوصانا بهم و لعن المحدث منهم ومن غيرهم.

إذن فليس كل صحابي منزهاً من الذم و ليس كل صحابي

محرماً من الثلب، لـذلك فلا مانع – أبـداً – أن يذكر علي بالذم والثلب من يسـتحق ذلك منهم، خصوصاً أن خصوصاً أن بعضـهم قد شـهر السلاح بوجهه وأعلن الحرب عليه وكان يود قتله وسفك دمه مهما كانت الوسائل وبأي سبيل كان.

ومن هنـا نرى أن كلمـات الـذم هـذه لم تكن بالشـكل الـذي لا يليق صـدورها عن رجل مثل علي في دينه وعلمه وتقواه كما يزعم محمود محمد شاكر، ولم تكن ما يجب إنكاره «تنزيهاً لعلي عن الهبوط إلى هذا المستوى، كما يدعي الدكتور شفيع السيد.

فهل يُعد ذم الناكثين و القاسطين والطعن في المارقين والمنحرفين عملاً منافياً للتقوى، ومخالفاً لأحكام الدين؟

لذلك فلم يكن من المسـتبعد أن يذم علي هؤلاء وأشباههم، وليس في ورود مثل هذا الذم في كلامه ما يحمل على الشك في انتساب ذلك الكلام إليه، خصوصاً أنه قد أثنى على الصـحابة الملتزمين الإثبات ثناءً جميلاً بلغ حد التأوّه و الحنين على فراقهم وعلى حنينه عليهم لأنهم تلوا القرآن فأحكموه، و تدبروا الغرض فأقاموه، أحيوا السنّة و أماتوا البدعة ... الخ.

أيكفي ذلك دليلاً على أن ما في «النهج» للإمام علي عليه السلام، وإن عكازة «التعريض» منخورة لا بد أن تُسقط صاحبها يوماً ما فيدرك ما كان عليه من خطأ في الرأي و قصور في النظرة. وإذا كان ذلك لا يكفي نقولها بصريح العبارة: إن الإمام علياً عليه السلام كان يعني ما يقول، وما قاله كان من إفراز معاناته من حق اغتصبوه منه؛ فخطبته الشقشقية التي أغضبتهم و بسببها صاروا يشككون بـ

النهـج لأنه كان مخزوناً لأنه كان مخزوناً من صدق المعاناة، و ليس كما يدعي صبري ابراهيم السـيد في كتابه تحقيق و توثيق نهج البلاغة إذ يقول:

و يبدو أن اشـتداد التشـيع لعلي أعمى شيعته عن حق السلف الصالح، فقالوا فيهم ما لا يقبله عقل و لا يؤيده تاريخ و ظنوا أن مكانة علي لا ترتفع إلا بالحط من قيم هؤلاء حطاً لا يقبله منصف ولا يرضى به على نفسه.

فمـا أودع خطبته الشقشـقية إن هو إلاـ أمر في غايـة المعقوليـة، ومن إبـداعات الإمام عليه السـلام نفسه و ليس دساً في كلام مثبوت الرواية معروف للقدماء حتى يجوز على العقول و يصعب فيه التمييز.

و أي رجـل في موقع الإمام علي عليه السـلام من حيث قرابته من الرسول صـلى الله عليه و آله و سـلم وإسـهاماته في الـدعوة الإسـلامية و شجاعته وعلمه وحصوله على «وصـية» رسول الله صـلى الله عليه و آله و سـلم بأمر من الله جلت قـدرته في غـدير خم بأن يكون ولي كل مؤمن ومؤمنة ... أقول ... أي رجل في موقعه و موقفه كان يفعل أكثر مما قاله الإمام علي عليه السـلام في الشقشقية و ولكن الإمام علياً عليه السـلام خاف على الإسـلام أن ينفرط عقده فتسقط حباته في أيدي الجاهلية الأولى فـ «سكت» على مضض، و لكن سكوته ذاك لا يعني رضاه، و لا يعني أنه ملزم أن لا يظهر ما يعتلـج في صـدره لاسـيما وهو إبن بيت النبوة و المسـلم الأول و المؤمن الأول و صاحب الخنـدق الذي قال عنه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم يومها: خرج الإيمان كله إلى الكفر أو الشرك كله وكان

الخلفاء الثلاثة شهوداً على موقفه ذاك، إذ لو أخذناه وحده شاهداً على أحقيته بالخلافة، لكفى، إذ كانت معركة الخندق فيصلاً حاسماً بين أن يكون الإسلام أو لا يكون، فثبتت أركانه واتسع بفضل سيف علي بن أبي طالب وشجاعته وغيرته على التكليف الإلهي. فأية غرابة في كلامه عليه السلام في خطبته الشقشقية؟ أليست هي تشخيص لواقع حصل؟ ألم يحصل ذلك في بيعة السقيفة و الرسول صلى الله عليه و آله و سلم مسجى في فراشه وعلي عليه السلام إلى جانبه وحده؟ أكثير على الإمام علي عليه السلام أن يقول: وإنه)أي أبو بكر) ليعلم أن محلي منها أي من الخلافة محل القطب من الرحي. ينحدر عني السيل و لا يرقى إليّ الطير؟

ألا يدل ذلك على أمرٍ (قد بُيِّت في ليل) مما دعا الإمام أن يقول:

... فيا عجباً بينا هو (أبو بكر) يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر عمر بن الخطاب بعد وفاته لشد ما تشطرا ضرعيها فصيَّرَاها في حوزة خشناء، يغلظ كلامها و يخشن مسها، و يكثر العثار فيها و الاعتذار منها فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم، و إن أسلس لها تقحّم فمني الناس لعمر الله، بخبط و شِماسٍ وتلون واعتراض.

ألم تكن تلك الصورة فوتوغرافيا لمسلسل تظهر خطوطه فيما بعد، بوضوح إنه تأمر ليس على الإمام علي عليه السلام فحسب، بل على الإسلام برمته لحرفه عن نقائه و صفائه و صدقه و جذره الإلهي.

و دليلنا الأول: ما حصل في (يوم السقيفة).

و دليلنا الثاني: ما أوصى الأول للثاني.

و دليلنا الثالث: دعوة عمر (رجال الشورى) و عهده إليهم باختيار الخليفة بعده.

و قد عرف الإمام هذا (المقلب) بثاقب بصيرته فصوره بكلمات قصار إذ قال:

فصغى رجل منهم لضغنه و مال الآخر لصهره، مع هن وهن.

و كان الإمام عليه السلام يقصد في كلامه كلاً من سعد بن أبي وقاص و عبد الرحمن بن أبي بكر و عثمان، الذي قال فيه: «إلى أن قام ثالث القوم، نافجاً حضنيه بين نثيله و معتلفه، و قام معه بنو أمية، يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع، إلى أن انتكث عليه فتله و أجهز عليه عمله و كبت به بِطنته.

و دليلنا الرابع: ما أسفرت عنه الأحداث بعد مقتل عثمان إذ كشف (بنو أمية) عن أوراقهم، و كان ما كان في حرب الجمل و صفين حتى مقتل الإمام عليه السلام فإذا كانت تلك المعاني التي وردت في الشقشقية «لا تتفق و سيرة علي مع الخلفاء، و لا تتلاءم مع ما أثر عنه من أقوال» كما يقول السباعي بيومي في كتابه تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي.

فنحن نقول: إن ما جاء في الشقشقية شيء – و هو إفراز معاناة – و الانعكاسات السلوكية للإمام عليه السلام على مجريات الأحداث و منها علاقته بمن تولوا الخلافة شيء آخر، إذ أنه كان في ذلك

بعيـد النظر يريد منه الحفاظ على قيم الإسـلام و معانيه و عدم انفراط حباته – كما قلنا سابقاً – و لا يعني الرضا عنهم و عن مسلسـلهم كما يُصَور للبعض.

5 – الوصي والوصاية

مثلما أخـذوا على (النهـج) أنه عرّض بالصـحابة فقد أخذوا عليه ورود مصـطلح (الوصـية و الوصاية) و بنوا على ذلك رأيهم بأن محتواه كان منحولاً في نسبته إلى الإمام عليه السلام لأن ذلك المصطلح هو من المصطلحات التي عرفت بعد عهد الإمام علي عليه السلام.

إن هذا الإدعاء يفتقر إلى الدليل العلمي كسابقه لذلك سنرد على مطلقيه – كعادتنا – بالدليل القاطع و المقنع فنقول:

إن مصـطلح الوصـي و الوصايـة ضارب بجـذوره في عهـد التاريخ العربي قبل نهج البلاغة بقرون. و كتب التفسـير أو الحديث أو التاريخ أو السير و الأدب مليئة بذلك المصطلح.

جاء في صحيح البخاري و مسلم عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قوله:

ما حق امرىءٍ مسـلم له شـيء يوصـي فيه يبيت ليلته إلا و وصيته مكتوبة عنده. مما جعل عمر يقول: «ما مرّت عليَّ ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال ذلك إلا وعندي وصيتي.

و جاء في مشكاة الأنوار قوله صلى الله عليه و آله و سلم: من مات بغير وصية مات ميتة جاهلية. و قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «من لم يحسن وصيته عند الموت كان نقصاً في مروءته وعقله».

و جاء في مستدرك الحاكم: إن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال لعلي عليه السلام:

«أما إنك ستلقى بعدي جهداً»

قال علي:

- أفي سلامة ديني؟

قال:

- في سلامة دينك.

و مما أخرجه ابن عساكر و المحب الطبري في (الرياض) ... قوله صلى الله عليه و آله و سلم لعلي:

- ضغائن في صدور قوم لا يبدونها إلا من بعدي ...

و نقل لنا صاحب الغدير قوله صلى الله عليه و آله و سلم:

يا علي إنك ستبتلى بعدي فلا تقاتلن.

صدق رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فقد عانى ما عاناه الإمام علي عليه السلام من خصومه بعد النبي الكريمة صلى الله عليه و آله و سلم و هو لم يسلم من سهامهم حتى بعد موته وها هم يوجهون سهامهم إليه في معطى من معطياته الفكرية ألا- و هو نهج البلاغة فيشككون في نسبته إليه ل_ (إقحام) مصطلح (الوصية و الوصاية) في طياته. و قد نسوا أو تناسوا أن ذلك المصطلح ولد في (مبدأ الدعوة الإسلامية قبل ظهوره و حين أنزل الله تعالى عليه صلى الله عليه و آله و سلم (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (1) فدعاهم إلى دار عمه أبي طالب و هم يومئذ أربعون رجلاً أو ينقصون، و فيهم أعمامه أبو طالب و حمزة والعباس وأبو لهب. إذ قال صلى الله عليه و آله و سلم يا بني

1- سورة الشعراء، الآية: 214

عبـد المطلب إني والله مـا أعلم شابـاً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به جئتكم بخير الـدنيا والآخرة وقـد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟».

فـأحجم القوم غير على و كـان أصـغرهم إذ قـام وقال: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخـذ رسول الله برقبته و قال: «إن هـذا أخي ووصـيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا ....

و نقل لنا محمـد بن جرير الطبري في (الولايـة) أن الرسول صـلى الله عليه و آله و سـلم قال: «إن الله تعالى أنزل إلي (بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) (1). وقد أمرني جبرئيل عن ربي أن أقول في هذا المشهد. و أُعلِم كل أبيض و أسود أن علي بن أبي طالب أخي و وصيي وخليفتي والإمام بعدي.

و قوله صلى الله عليه و آله و سلم: يا معاشر الناس هذا أخي ووصيي وواعي علمي وخليفتي على من آمن بي.

و جاء في كفاية الطالب أنه صلى الله عليه و آله و سلم قال: «علي وعاء علمي ووصيي وبابي الذي أوتى منه.

و في (إكمال كنز العمال) جاء: إن رسول الله صـلى الله عليه و آله و سـلم قال الفاطمة عليها السـلام إن الله اطلع على أهل الأرض اطلاعة فاختار أباك فبعثه نبياً، ثم اطلع الثانية فاختار بعلك و أوصى إلي فاتخذته وصياً.

1- سورة المائدة، الآية: 67

و في فرائد السمطين جاء قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «أنا أفضل أنبياء الله و رسله وعلي بن أبي طالب أفضل الأوصياء ...» و قوله صلى الله عليه و آله و سلم: علي أخي ووزيري ووصيي وخليفتي في أمتي وولي كل مؤمن و مؤمنة.

و نقل لنا الخوارزمي في مناقبه عن ابن عباس قوله: «قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لأم سلمة: هذا علي بن أبي طالب لحمه من لحمي ودمه من دمي وهو مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي يا أم سلمة هذا أمير المؤمنين و سيد المسلمين ووعاء علمي ووصيي وبابي الذي أوتى منه أخي في الدنيا و الآخرة و معي في المقام الأعلى ...».

و عن سلمان المحمدي – كما جاء في (الولاية) لمحمد بن جرير الطبري – قال:

قلت لرسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: يا رسول الله إنه لم يكن نبي إلا وله وصي فمن وصيك؟ قال وصيي وخليفتي في أهلي و خير من أترك بعدي، مؤدي ديني و منجز عداتي علي بن أبي طالب».

و عن المصدر نفسه قال النبي صلى الله عليه و آله و سلم: يا أنس يدخل عليك من هذا الباب أمير المؤمنين و سيد المسلمين وقائد الغر المحجلين و خاتم الوصيين قال أنس قلت اللهم اجعله رجلاً من الأنصار، وكتمته، إذ جاء علي فقال: من هذا يا أنس؟ قلت علي فقام مستبشراً و اعتنقه.

و جاء في ينابيع المودة للقندوزي الحنفي: قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم:

«إن الله عز وجل عهـد إلي في علي عهـداً ... إن علياً رايـة الهدى و إمام أوليائي و نور من طاعتي و هو الكلمة التي ألزمها المتقين من أحبه أحبني و من أبغضه أبغضـني فبشـره بذلك، فجاء علي فبشـرته بذلك فقال: يا رسول الله أنا عبد الله و في قبضته، فإن يعذبني فبذنبي و إن يتم الـذي بشـرني به فالله أولى به، قال عليه السـلام: قلت اللهم اجل قلبه و اجعله ربيعـة الإيمان فقال ربي عز وجل، قد فعلت به ذلك، ثم قال تعالى: إني مستخصه بالبلاء فقلت: يا رب إنه أخي و وصيي قال تعالى: إنه شيء قد سبق إنه مبتلى و مبتلى به.

وعن أحمد بن حنبل في مسـنده قال أنس بن مالك قلنا لسـلمان: سل النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن وصيه فقال سلمان: يا رسول الله مَن وصيُّك؟ فقال: يا سلمان مَن وصي موسى؟ فقال: يوشع بن نون، قال: وصيي ووارثي يقضي ديني و ينجز موعدي علي ابن أبي طالب.

و ذكر الخوارزمي حـديثاً طويلاً روته أم سـلمة جاء في آخره: إن الله اختار من كل أمة نبياً و اختار لكل نبي وصـياً فأنا نبي هذه الأمة و علي وصيي في عترتي و أهل بيتي وأمتي من بعدي.

و في ينابيع المودة عن أبي الطفيل عامر بن وائلة و هو آخر مات من الصحابة قال: قال رسول صلى الله عليه و آله و سلم: يا علي أنت وصيي حربك حربي و سلمك سلمي ...».

و في كتاب مودة القربى للهمداني: عن خالد بن معدان رفعه: إن مَن أحب أن يمسي في رحمة الله فلا يدخل قلبه شك

بأن ذريتي أفضل الذريات، و وصيي أفضل الأوصياء.

و في المحاسن و المساوىء للبيهقي: إن النبي صلى الله عليه و آله و سلم قال:

هبط عليّ جبرئيل عليه السلام يوم حنين فقال: يا محمد إن ربك تبارك و تعالى يقرئك السلام و قال: إدفع هذه الأترجة إلى ابن عمك و وصيك علي بن أبي طالب عليه السلام فدفعتها إليه، فوضعتها في كفه، فانفلقت نصفين فخرج منها رق أبيض مكتوب فيه بالنور: من الطالب الغالب إلى علي بن أبي طالب.

وجاء في المنتقى من تاريخ بغداد لابن الحداد الحنفي في الحديث ينادي منادٍ أي يوم القيامة هذا علي بن أبي طالب وصي رسول رب العالمين، و إمام المتقين، و قائد الغر المحجلين ... الحديث.

و سجل لنا نصر بن مزاحم في كتابه (صفين) شعراً للإمام علي وردت فيه كلمة (الوصي)، قال عليه السلام:

يا عجباً لقد سمعت نكرا *** كذباً على الله يشيب الشعرا

يسترق السمع و يغشي البصرا *** ما كان يرضى أحمداً لو خبرا

أن يقرنوا وصيه و الأبترا

و يريد بالأبتر: عمرو بن العاص، إذ نزلت في أبيه الآية: (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) (1)

1- سورة الكوثر، الآية: 3

أما الخوارزمي فنقل في مناقبه قوله صلى الله عليه و آله و سلم: أنا أخو رسول الله و وصيه.

و خطب الإمام الحسين عليه السلام كما في مستدرك الحاكم فقال: أنا ابن النبي و أنا ابن الوصي.

أما الإمام الحسين عليه السلام فقد قال في خطبته يوم عاشوراء:

«أما بعد فانسبوني فانظروا من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم فعاتبوها فانظروا هل يحل لكم قتلي و انتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم صلى الله عليه و آله و سلم و ابن وصيه و ابن عمه و أول المؤمنين بالله ...؟ الخطبة.

كثيرة هي الأحاديث التي وردت فيها كلمة (الوصية و الوصي)، ونحن إذا اقتصرنا على ما ذكرنا من أحاديث فلأنني أتوخى المرور بالشواهد و الأدلة لئلا أطيل على القارىء الكريم و غير الأحاديث ثمة آيات قرآنية كثيرة وردت فيها تلك الكلمة

(الوصية) يمكن الرجوع إليها.

أما الشعر العربي قبل ظهور «نهج البلاغة» فكان هو الآخر قد حمل لنا تلك الكلمة يحسن بنا أن نلم بشيء منه: قال عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

و منا علي ذاك صاحب خيبرٍ *** و صاحب بدرٍ يوم سالت كتائبه

وصي النبي المصطفى و ابن عمه *** فمن ذا يدانيه ومن ذا يقاربه

وقال عبد الرحمن بن جعيل:

لعمري لقد بايعتم ذا حفيظةٍ *** على الدين معروف العفاف موفقا

علياً وصي المصطفى وابن عمه *** و أول من صلى أخا الدين و التقى

ومن البدريين الهيثم بن التيهان إذ قال:

قل للزبير و قل لطلحة إننا *** نحن الذين شعارنا الأنصار

نحن الذين رأت قريش فعلنا *** يوم القليب أولئك الكفار

كناشعار نبينا و دثاره *** يفديه منا الروح و الأبصار

إن الوصي إمامنا و ولينا *** برح الخفاء وباحث الأسرار

و خرج يوم الجمل غلام من بني ضبة شاب معلم من عسكر عائشة وهو يقول:

نحن بني ضبة أعداء علي *** ذاك الذي يعرف قدماً بالوصي

وفارس الخيل على عهد النبي *** ما أنا عن فضل علي بالعمي

و قال حجر بن عدي الكندي في ذلك اليوم أيضاً:

يا ربنا سلم لنا عليا *** سلم لنا المبارك المرضيا

المؤمن الموحد التقيا *** لاخطل الرأي و لا غويا

بل هادياً موفقاً مهديا *** ثم ارتضاه بعده وصيا

أما خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين و كان بدرياً فقد قال يوم الجمل:

يا وصي النبي قد أجلت الحر *** ب الأعادي وسارت الأظعانُ

و استقامت لك الأمور من الشا *** م وفي الشام يظهر الإذعانُ

حسبهم ما رأوا وحسبك منا *** هكذا حيث كنا و كانوا

و أما كتب التاريخ فقد نقلت لنا في طياتها مصطلح الوصي والوصية) هي الأخرى يجدر بنا الوقوف عندها بمرور سريع:

قال ابن واضح في تاريخه: و من جملة احتجاج الخوارج على أمير المؤمنين عليه السلام أنه ضيع الوصية فكان من جوابه عليه السلام: «أما أقوالكم أني كنت وصياً فضيعت الوصية فإن الله عز وجل يقول: (وَلِلّهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (1) أفرأيتم هذا البيت لو لم يحج إليه أحد كان البيت كفر؟ إن هذا البيت لو تركه من استطاع إليه سبيلا كفر و أنتم كفرتم بترككم إياي لا أنا بتركي لكم ....

و قال واضح أيضاً: و قال مالك بن الحارث الأشتر لما بويع أمير المؤمنين عليه السلام:

«أيها الناس هذا وصي الأوصياء و وارث علم الأنبياء، العظيم البلاء الحسن المضاء، الذي شهد له كتاب الله بالإيمان، و رسوله بجنة الرضوان من كملت فيه الفضائل، و لم يشك في سابقته و علمه و فضله الأواخر و لا الأوائل».

أما أبو جعفر الإسكافي المعتزلي فقال في (نقض العثمانية):

1- سورة آل عمران الآية: 97

و قال عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

و إن ولي الأمر بعد محمدٍ *** علي، وفي كل المواطن صاحبه

وصي رسول الله حقاً وصنوه *** و أول من صلى و من لان جانبه

و نقل لنا الخوارزمي في مناقبه كتاب عمرو بن العاص إلى معاوية قبل أن يتفقا جاء فيه:

فأما ما دعوتني إليه من خلع ربقة الإسلام من عنقي و التهور في الضلالة معك، و إعانتي إياك على الباطل، و اختراط السيف في وجه علي و هو أخو رسول الله و وصيه ووارثه، و قاضي دينه و منجز وعده وزوج ابنته.

و أما المسعودي، في مروج الذهب، فقد نقل لنا كتاب محمد بن أبي بكر إلى معاوية و إليك ما يتعلق بالوصية قوله: فكيف – لك الويل – تعدل نفسك بعلي و هو وارث رسول الله

و وصيه.

و مما نقلت لنا المصادر الموثوق بها أقوال بعض المشاهير ممن تأخر عن عصر النبوة و الخلافة الراشدية و قد ورد فيها مصطلح الوصية و الوصاية.

قال الكميت بن زيد الأسدي في الهاشميات:

و الوصي الذي أمال التجوبي *** به عرش أمة لا ته_دام

كان أهل العفاف و المجد و الخير *** ونقض الأمور و الإبرام

و الوصي الولي والفارس المعلم *** تحت العجاج غير الكهام

و وصي الوصي ذي الخطة الفصل *** و مردي الخصوم يوم الخصام

و قال قيس بن الرقيات:

نحن منا النبي أحمد و الصد *** يق منا النقي و الحكماء

و علي وجعفر ذو الجناحين *** هناك (الوصي) والشهداء

وقال كثير لما حبس عبد الله بن الزبير محمد ابن الحنفية:

تخبر من لاقيت أنك عائذ *** بل العائذ المحبوس في سجن عارم

وصي النبي المصطفى وابن عمه *** و فكاك أعناق و قاضي مغارم

و قال شارح الهاشميات محمود محمد الرافعي عن البيت الثاني:

«وأراد ابن وصي النبي، و العرب تقيم المضاف إليه في الباب مقام المضاف ...».

و لكن في تذكرة الأمة روي البيت هكذا:

سمي نبي الله وابن وصيه *** و فكاك أغلال وقاضي مغارم

فانتفت الحاجة إلى تخريج شارح الهاشميات.

و قال السيد إسماعيل بن محمد الحميري في قصيدته المذهبة التي شرحها السيد المرتضى:

و أن قلبي حين يذكر أحمداً *** و وصي أحمد نيط من ذي مخلب

أما دعبل الخزاعي – كما جاء في معجم الأدباء – فقال في رثاء الحسين عليه السلام:

رأس ابن بنت محمد و وصيه *** يا للرجال على قناة يُرفَع

وأما الكتب التي أُلفت في الوصـية في القرون الأولى و الصدر الأول قبل القرن الرابع – أي قبل صدور «نهج البلاغة» – فكثيرة نذكر منها ما صدر في القرنين الأول و الثاني:

1 – كتاب الوصية لهشام بن الحكم المشهور.

2 – الوصية للحسين بن سعيد الأهوازي.

3 – الوصية للحكم بن مسكين المكفوف.

4 – الوصية لعلي بن المغيرة.

5 – الوصية لعلي بن الحسن بن فضال.

6 – الوصية لمحمد بن علي بن الفضل.

7 – الوصية لإبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي.

أما ما صدر في القرن الثالث نذكر منها:

1 – الوصية ليحيى بن المستفاد.

2 – الوصية لمحمد بن الصابوني.

3 – الوصية لمحمد بن الحسن بن فروخ.

4 – الوصية و الإمامة لعلي بن الحسين المسعودي صاحب مروج الذهب.

5 – الوصية لعلي بن رئاب.

6 – الوصية لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي.

7 – الوصايا لمحمد بن علي السلحفاتي المشهور.

ذلك غيض من فيض و من أراد الاتساع فليراجع كتاب مصادر نهـج البلاغـة و أسانيده للشـيخ عبد الزهراء الحسـيني الخطيب 1 / 139 – 179. فقد اعتمدناه في كثير من شواهدنا جزاه الله خيراً.

فهل مزقت تلك الشواهـد الظلام الذي غطى على عيون الذين ادّعوا إن الرضـي انفرد بذكر الوصـية و الوصاية؟ و هل أذابت الضـباب الذي حال دونهم لرؤية الحقيقة وسط أشعة الشمس

الساطعة؟

أرجو أن أكون قد أسـهمت مع من أسهم في إلقاء الضوء على واحدة من أهم تشكيكات المشككين في نسبة «نهج البلاغة» إلى الإمام علي عليه السلام. عسى أن يهتدي من يطلب الهداية فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ (1) صدق الله جلّت قدرته.

6 – الإطناب و الإيجار

و ممـا دعـاهم إلى التشـكيك في نسـبة مـا في نهـج البلاغـة إلى الإمـام علي عليه السـلام كونه أطنب في بعض الخطب و الكتب و أطال، كالقاصفة و الأشباح و عهد مالك بما لم يكن مألوفاً في صدر الإسلام (2).

1– سورة الرعد الآية: 17

2– أثر التشيع في الأدب العربي

في الحقيقة إن طول الخطب و قصرها، أو الإطناب و الإيجاز فيها لم يكن مقتصراً على عهد دون آخر، بل إن ذلك يتساوق مع المرحلة و الحدث و متطلباتهما؛ فكلما سخنت المرحلة و تشعب الحدث تطلب الأمر الارتفاع إلى مستواهما و التوفر على مفرداتهما و التوغل في أعماقهما و الإحاطة بتفاصيلهما و إماطة اللثام عن مفاصلهما. و هذا يتطلب من القائد استقراء المرحلة و الحدث ليستطيع بالتالي من وصف الحالة و طرح الحلول، ولا يكون ذلك إلا بالإطالة، أو الإطناب في الكلام وهو مما تطلبه عصر الإمام علي عليه السلام لما فيه من سخونة استثنائية لم تشهدها العهود التي سبقته؛ فهو عليه السلام – على قصر فترته في قيادة الأمة الإسلامية – خاض ثلاث حروب ضارية هي: الجمل وصفّين والنهروان وواجه أُناساً انقلبوا على تعاليم الإسلام المتمثلة بالقرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم، محمد صلى الله عليه و آله و سلم، وأُناساً أغرتهم الدنيا بزخرفها فنكصوا عن جادة الحق، و أُناساً تأرجحوا بين هؤلاء و أولئك.

فما الذي يفعله الإمام إزاء ذلك كله؟

أليس عليه غير التوجيه و الإرشاد و النصح؟

أيكون ذلك بكلمات موجزات قصار؟

حتى القرآن الكريم لم تكن سوره على وتيرة واحدة من الأسلوب؛ فثمة السور القصار جداً، بل والآيات القصار جداً، وثمة السور الطوال، بل والآيات الطوال، كل ذلك لتنسجم مع المرحلة و الحدث.

فالذين أنكروا على الإمام علي عليه السلام أن يكون صاحب نهج البلاغة لذلك السبب لم يتوفروا على عصره و ما أحاطت به من أحداث وإن كانوا قد اعترفوا – مضطرين – بقبول ذلك بقولهم: «نحن لا نقول إن هذا القدر من الطول في الخطب غير مقبول عقلاً ...» (1).

و لكي لا نترك موضوعنا بلا إسناد تاريخي – كما هو منهجنا في البحث دائماً – نقول: إن سمة «الطول» في الخطب كانت معروفة و منتشرة في الجزيرة العربية قبل عهد الإمام عليه السلام ؛ فقد روي أن قيس بن خارجة بن سنان خطب يوماً إلى الليل فما أعاد كلمة و لا معنى (2). وكذلك فعل سحبان وائل عندما وجد أن الضرورة تقتضي الإفاضة في الكلام و هو في مجلس معاوية إذ خطب من انتهاء صلاة الظهر إلى حلول وقت العصر (3)، ولم يقل أحد أن ذلك مخالف للبلاغة أو خارج على أصول الكلام.

و مع إطنابه ذلك كان يوجز في الكلام غاية الإيجاز على ما تقتضيه الحال. و في ذلك يقول الدكتور زكي مبارك (4): و سحبان وائل الذي عرف بالتطويل و أنه كان يخطب أحياناً نصف يوم، أثرت عنه الخطب القصيرة الموجزة، و ذلك يدل على أن الفطرة كانت غالبة على ذلك العصر، وأن القاعدة المطردة لم تكن شيئاً آخر غير مراعاة الظروف ...

1- الإمام علي: أحمد زكي صفوة

2- البيان والتبيين

3- شرح العيون في شرح رسالة ابن خلدون

4- في كتابة النثر الفني

إن مسألة الإيجاز و الإطناب كانت تجري على مقتضى الحال فكان الكاتب يوجز تارة و يطنب أخرى على وفق الظروف التي فيها رسالته و كان من الخطباء من يطيل و كان منهم من يوجز، و لا يرجعون في ذلك إلى قاعدة غير المناسبات التي توجب الكلام، فتقضي مرة بالإطناب و تقضي حيناً بالإيجاز.

فالإمام على عليه السلام فضلاً عن أنه عاش تلك الظروف و خالط خطباء ذلك العصر، فهو من قال فيه الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم: «أنا مدينة العلم و علي بابها فمن أراد العلم فليأته من بابه». وخاطبه مرة قائلاً: أنت سيد الفصحاء وسيد البلغاء»، و هو من قال فيه ابن عباس: ما رأيت – قط – أذكى من علي بن أبي طالب عليه السلام. وهو من خاطبه عمر: لا أبقاني الله بأرض لست فيها يا أبا الحسن. كما قال:

لولا علي لهلك عمر. ثم هو من قال عنه معاوية: «فوالله ما سن الفصاحة لقريش غيره.

فإذا كان الإمام علي عليه السلام كذلك في الفصاحة و البلاغة و الذكاء فمن باب أولى أن يكون متمكناً من أدواته اللغوية تمكن الصيرفي من نقوده؛ فهو يطيل متى رأى أن الموقف يتطلب الإطالة و يقصر على وفق مقتضى الحال، و قد أنصف الدكتور زكي المبارك عندما قال:

و رسائل علي بن أبي طالب وخطبه ووصاياه، وعهوده إلى ولاته في نهج البلاغة تجري على هذا النمط؛ فهو يطيل عندما يكتب عهداً يبين فيه ما يجب على الحاكم في سياسة القطر الذي

يرعاه و يوجز حين يكتب إلى بعض خواصه في شيء معين لا يقتضي التطويل (1).

فتشكيكهم، إذن، في هذا الجانب حظه مثل حظه في الجوانب الأُخر لم يستقوا فيه إلا من سراب ولم يركبوا إلا ظهور الأرانب.

7 - السجع:

والسجع عكازة أخرى تعكز عليها المشككون في نسبة ما في نهج البلاغة إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. فقال محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمته على النهج: إن فيه من السجع و التنسيق اللفظي، و آثار الصنعة ما لم يعهده عصر الإمام و لا عرفه و إنما ذلك طرأ على العربية بعد العصر الجاهلي و صدر الإسلام و افتن به أدباء العصر العباسي و الشريف الرضي جاء بعد ذلك على ما ألفوه فصنف الكتاب على نهجهم و طريقتهم و مع اعترافه بأن من عرف ابن أبي طالب حامي عرين الفصاحة و ابن بجدتها لم يعسر عليه السليم. أقول مع ذلك فإنه - و في مقدمته تلك - راح يبطن تشكيكه بكلمات ملفوفة إذ قال: «السجع إذا جاء من غير تصنع و تكلف ولم تظهر سماجته و لم يثقل استماعه كان آية من آيات البلاغة ودلائل الفصاحة و مع ذلك فليس ما في الكتاب كله سجعاً و ما فيه من السجع فهو مما لم تدع إليه الصنعة، و لا اقتضاه الكلف بالمحسنات، و أكثره مما يأتي عفواً

1- المصدر السابق نفسه

بلا كـد خاطر و لا تجشم هول و مثله في عبارات عصـره واقع ومن عرف ابن أبي طالب كان حامي عرين الفصاحـة و ابن بجـدتها لـم يعسـر عليه السليم.

أما أحمد أمين فقد شـكك هو الآخر بنسـبة ما في النهج إلى الإمام علي عليه السلام إذ قال في فجر الإسلام: و استوجب هنا الشك أمور ما في بعضه من سجع منمق، و صناعة لفظية لا تعرف

لذلك العصر كقوله: و يعني الإمام عليه السلام:

أكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير و أصلك الذي إليه تصير.

و اعتمد في شـكه هذا على هوار الذي سـبق أن شك في نسـبته إلى الله جل و علا. إذ نقل عنه طه حسين في الأدب الجاهلي قوله: إن ورود هذه الأخبار في شـعر أُمية بن أبي الصـلت مخالفة بعض المخالفة لما جاء في القرآن، دليل على صحة هذا الشعر من جهة و على أن النبي قد استقى منه أخباره من جهة أخرى.

لنناقش هؤلاء عسى أن نتوصل نحن و إياهم إلى منبع الحقيقة الصافي فنرتوي منه الحق و العدل والإنصاف:

1 – يقول محمد م محيي الدين عبد الحميد: إن فيه من السجع والتنميق اللفظي و آثار الصنعة ما لـم يعهده عصر الإمام ولا عرفه ....

إذا كان ما قرره محمد محيي الدين عبد الحميد صحيحاً

فماذا نسمي قول الرسول الكريم محمد صلى الله عليه و آله و سلم: «إن الأعمار تفنى و الأجسام تبلى والأيام تطوى والليل والنهار يتطاردان تطارد البريد، يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد، و في ذلك - عباد الله - ما يلهي عن الشهوات ويرغب في الباقيات الصالحات»؟

و ماذا نسمي قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «إن مع العز ذلاً، و إن مع الحياة موتاً، و إن مع الدنيا آخرة، و إن لكل شيء حساباً، و لكل حسنة ثواباً، ولكل سيئة عقاباً، و إن لكل شيء رقيباً، و إنه لا بد لك من قرين يدفن معك هو حي و أنت ميت فإذا كان كريماً أكرمك، و إن كان لئيماً أسلمك و لا تُبعث إلا معه و لا تُسأل إلا عنه فلا تجعله إلا صالحاً فإنه إن صلح أنست به و إن فسد لم تستوحش إلا منه وهو عملك.

و ماذا نسمي قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «أفشوا السلام و أطعموا الطعام وصِلوا الأرحام وصلّوا بالليل و النهار و الناس نيام.

و ماذا نسمي قوله صلى الله عليه و آله و سلم: «إنما الحياء من الله أن تحفظ الرأس و ما وعى والبطن وما حوى و تذكر الموت و البلى.

و قوله صلى الله عليه و آله و سلم: إرجعن مأزورات غير مأجورات.

و ماذا نقول عن خطبة أبي بكر: «أستهدي الله بالهدى، وأعوذ به من الضلال والردى، (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا) (1)

و عن خطبته: يا معشر الأنصار إن شئتم أن تقولوا آويناكم

1- سورة الكهف، الآية: 17

في ظلالنا و شاطر ناكم في أموالنا و نصرناكم بأنفسنا، قلتم، و إن لكم من الفضل ما لا يحصيه العدد و إن طال به الأمد.

وماذا نقول عن خطبة لعمر في الاستسقاء: اللهم قد ضرع الصغير، ورقَّ الكبير، وارتفعت الشكوى و أنت تعلم السر و أخفى.

و ماذا نقول عن خطبة لعثمان خطب بها الناس لما نقموا عليه ما نقموا: إن لكل شيء آفة و إن لكل نعمة عاهة و في هذا الدين عيابون ظنانون يظهرون لكم ما تحبون، و يُسرّون ما تكرهون، يقولون لكم و تقولون.

و قبل ذلك؛ ماذا نقول عن خطبة قس بن ساعدة الإيادي و من الرواة لها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم نفسه، ومنها (1):

«أيها الناس اسمعوا و عوا من عاش مات و من مات فات، و كل ما هو آتٍ آت ليل داج و نهار ساج، و سماء ذات أبراج، ونجوم تزهر وبحار تزخر وجبال مرساة، و أرض مدحاة، و أنهار مجراة، إن في السماء مخبراً و إن في الأرض لعبراً ... الخ.

أليس تلك الأقوال سجعاً ظاهراً و واضحاً؟ ثم أليست هي في عصر الإمام؟ و إذا انتهينا من تلك الأقوال وعدنا إلى منبع الإسلام الأول – القرآن الكريم – نجد فيه السجع يشكل السمة الأكثر ظهوراً:

1- النثر الفني – زكي مبارك

(قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ (1) اللّٰهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)) (1)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢)) (2)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ 1 مَلِكِ ٱلنَّاسِ 2 إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ 3 مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ 4 ٱلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ 5 مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ 6) (3)

(وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ) (4).

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ () وَ وَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ) (5)

إضافة إلى السور: الذاريات الطور النجم الرحمن الواقعة، ... و غيرها من السور الطوال.

فماذا يعني هذا؟ أليس يعني أن الإمام علياً عليه السلام هو امتداد لعصره و العصر الذي سبقه؟ إن ذلك التواصل أمر طبيعي ينسحب على كل مفردات الحياة و اللغة هي إحدى تلك المفردات، ثم أهو غريب عن شخصيةٍ مثل علي بن أبي طالب عليه السلام الذي وصفه الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و غيره أنه إمام الفصحاء و سيد البلغاء أن نرث عنه هذا الإرث المتفرد في تدفقه العفوي الطبيعي والمتفرد في بنائه

1- سورة الإخلاص، الآيات: 1 - 4

2- سورة الفلق، الآيتان: 1 - 2

3- سورة الناس، الآيات: 1 - 6

4- سورة الفجر، الآيتان: 1 - 2

5- سورة الشرح، الآيتان: 1 - 2

المعماري المنسجم مع كل عصر في الشكل و الموضوع؟ وأين هي آثار الصنعة في قوله عليه السلام:

إن تقوى الله دواء داء قلوبكم و بصر عمى أفئدتكم وشفاء مرض أجسادكم و صلاح فساد صدوركم، و طهور دنس أنفسكم، و جلاء غشاء أبصاركم، و أمن فزع جأشكم، و ضياء سواد

ظلمتكم؟

و قوله عليه السلام و هو يخوف فيها أهل النهروان: «فأنا نذير لكم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر، و بأهضام هذا الغائط، على غير بينة من ربكم و لا سلطان مبين معكم قد طرحت بكم الدار، واحتبلكم المقدار؟

نحن نقيم الدنيا و نقعدها إذا ما قرأنا لأبي العلاء المعرّي لزومياته و ننبري لشرحها والإشادة بها كتراث عربي (وهي كذلك لا شك ولكننا نعُد تلك اللزومية المتدفقة بشكل عفوي المتساوقة مع المفردات التي قبلها و التي بعدها تساوقاً لا تجعلك تحس بأي أثر للصنعة؛ إذ جعل التقوى دواء القلوب و بصر الأفئدة و شفاء الأجساد و صلاح الصدور وطهر الأنفس، و جلاء الأبصار و أمن الفزع وضياء الظلم.

هذه الوحدة الموضوعية العجيبة و الوحدة العضوية المتماسكة و الجرس الموسيقي الذي تبعثه لزومية الـ «كم» الجميلة المنبعثة من نفس تحترق لتضيء الطريق للآخرين، تبدأ بـ «التقوى» لتعدد لنا تأثيراتها و نتائجها على النفس البشرية و السلوك الاجتماعي و النظرة الشمولية للحياة.

أقول ... إذا ما قرأنا ذلك لعلي بن أبي طالب عليه السلام نعُدّه من (آثار الصنعة)

لماذا يا قوم؟ أليست مفردات علي عليه السلام هي ذاتها المفردات العربية التي و رثناها من عصور ضاربة في عمق الزمن؟ ولكنها جاءت على لسانه بعفوية بحيث تنسجم مع الناحية الصوتية فتجيء على اللسان لذيذة الوقع في الآذان موافقة لحركات النفس، مطابقة للعاطفة التي أزجتها و للفكرة التي أملتها (1).

أليس كذلك؟

قليلاً من التأني و الإنصاف في إصدار الأحكام على معطيات رجل كان و ما يزال و سيبقى معلماً مهماً، بل و متفرداً من معالم حضارتنا و إرثنا الأدبي.

2 - يقول محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمته تلك:

وافتتن به (أي السجع) أدباء العصر العباسي، و الشريف الرضي جاء من بعد ذلك على ما ألفوه فصنف الكتاب على نهجهم وطريقتهم.اهـ.

ومعنى هذا الكلام أن الشريف الرضي هو الذي وضع هذا السجع لينسجم مع «نهج» معاصريه.

لو ألقينا نظرة فاحصة و دقيقة و منصفة على مؤلفات الشريف الرضي التي وصلتنا لوجدناها مختلفة عما في نهج البلاغة في

1- تاريخ بغداد

تركيباتها اللغوية و سياقها العام تمام الاختلاف؛ فالرجل له أسلوبه البحثي النابع من ثقافته اختارها هو لنفسه و من تأصل في تركيبه الذهني. أما أسلوب النهج فليس فيه ذلك.

إن محتويات النهج بما فيها السجع كانت وليدة اللحظة و الحدث و المعاناة واستشراف آفاق المستقبل، ولكنها كانت مترابطة متماسكة متساوقة مع بعضها بحيث شكلت بمجموعها وحدة موضوعية واحدة هي الله و العالم و الإنسان هذا أولاً، و ثانياً – وقد ألمحنا إليه فيما سبق – إن الشريف الرضي لو كان واضع ذلك السجع في طيات نهج البلاغة لأشار إليه، أو لأفرده ضمن مؤلف يضاف إلى مؤلفاته العديدة و لو عرفنا أن الرضي يتمتع بالتزام أخلاقي و ديني لأدركنا أنه يحتاط أن ينسب ما لغيره لنفسه و ما لنفسه لغيره نتيجة ذلك الالتزام. فضلاً عن إن جمل السجع تلك تتحدث عن شواهد تاريخية معروفة، كمخاطبة الخوارج بهدف تخويفهم وقد مر ذلك.

و قوله في كتاب إلى عبد الله بن عباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر: فعند الله نحتسبه ولداً،ناصحاً و عاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، و ركناً دافعاً ....

و قوله لما أغار النعمان بن بشير الأنصاري على عين التمر: منيت بمن لا يطيع إذا أمرت و لا يجيب إذا دعوت لا أبا لكم ما تنظرون بنصركم ربكم؟ أما دين يجمعكم؟ ولا حمية تحشمكم.

و كتطبيق عملي لما احتاط به الشريف الرضي في نقله قوله عليه السلام:

«العين وكاء» (1)

قال الرضـي رحمه الله: وهذا من الاسـتعارات العجيبة ... و من الناس من ينسب هذا الكلام إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام، وقد ذكر ذلك محمد بن يزيد المبرّد في كتاب «المقتضب» في باب اللفظ بالحروف، و في الأظهر الأشهر أنه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و قد احتاط الرضي رحمه الله في نقل هذا الحديث في النهج فقال:

فهذا القول في الأشهر الأظهر من كلام النبي صلى الله عليه و آله و سلم و قد رواه قوم لأمير المؤمنين وذكر ذلك المبرد ....

لا أدري هل يكفي هذا لإثبات أن الشـريف الرضـي لم يضف السجع ليتفق و سمات عصره و نقله نقلاً واثقاً عن لسان إمام الفصحاء و سيد البلغاء علي بن أبي طالب عليه السلام؟

فإذا كان لا يكفي فما ذنب من أراد أن يخرق سـجف الظلام في طريق من تلفعوا به ولكنهم أخـذوا يسـتجيرون به لئلّا تحرق عيونهم أشـعة الشمس.

3 – و قال محمد مع محيي الدين عبد الحميد: السـجع إذا كان من غير تصـنع و تكلف، ولم تظهر سماجته، ولم يثقل استماعه كان آية من آيات البلاغة و دلائل الفصاحة ....

ماذا يعني بكلامه هذا؟

1- بلاغة الإمام علي لأحمد الحوفي

إن المتبادر إلى الذهن لأول وهلة يظن أن مراده الإشارة بقول الإمام في هذا الفن (السجع) و لكن بعد التمحيص والتدبر يظهر الكلام على حقيقته و هو: إنه أراد به الغمز الخفي و الاتهام المستور بأن هذا اللون من الكلام لم يكن ذا صلة بالإمام أولاً، و أنه يشوبه التصنع و التكلف والسماجة ثانياً. أما كونه ذا صلة بالإمام فهذا ما تحدثنا عنه في الفقرة (2) السابقة، و نضيف أنه عليه السلام، خاطب أهل البصرة قائلاً:

يا أشباه الرجال و لا رجال ... لوددت أني لم أركم و أعرفكم ... و دارستكم الكتاب و فاتحتكم المجاج، وعرفتكم ما أنكرتم، و سوغتكم ما مججتم لو كان الأعمى يلحظ و النائم يستيقظ (1).

فهو شاهد تاريخي لا يقبل الجدال إنه من قول الإمام علي عليه السلام. أما كونه يشوبه التصنع و التكلف و السماجة، فهذا مما يمكن دحضه بشواهد من أقواله عليه السلام، كقوله عليه السلام:

فليقبل امرؤ كرامة بقبولها و ليحذر قارعة قبل حلولها و لينظر امرؤ في قصير أيامه و قليل مقامه في منزل حتى يستبدل به منزلاً فليصنع لمتحوله و معارف منتقله، فطوبى لذي قلب سليم أطاع من يهديه وتجنب من يرديه، و أصاب سبيل السلامة ببصر من يبصِّره، وطاعة هادٍ أمره وبادر الهدى قبل أن تغلق أبوابه، وتقطع أسبابه و استفتح التوبة و أحاط الحوبة، فقد أقيم على الطريق و حُدي نهج السبيل.

1- نهج البلاغة 263/2

و قوله عليه السلام: «و أشهد أن محمداً عبده و رسوله أرسله بالدين المشهور، و القلم المأثور، و الكتاب المسطور، و النور الساطع، و الضياء اللامع، و الأمر الصادع إزاحة للشبهات و احتجاجاً بالبينات و تحذيراً بالآيات و تخويفاً بالمثلات، و الناس في فتن انجذم فيها حبل الدين، وتزعزعت سواري اليقين و اختلف النجر، و تشتت الأمر، وضاق المخرج، وعمي المصدر، فالهدى خامل و العمى شامل ...».

و لولا خوف الإطالة لاستشهدنا بالكثير من أقواله المسجوعة التي جاءت عفو الخاطر ولكنها لم تكن ذا صلة بالسماجة و التصنع والتكلف. بل كانت آية من آيات البيان العربي و لوحات فنية تحكي مسيرة هذا الإنسان في حياته اللاحبة.

4 – لقد سلم محمد محيي الدين عبد الحميد بأن الإمام علياً عليه السلام حامي عرين الفصاحة. كأن الإمام علياً عليه السلام كان يحتاج لشهادة محمد محيي الدين بأنه حامي عرين الفصاحة و كأننا لم نعرف ذلك فتبرع ليدلنا عليه.

إن مثل هذا الأسلوب يبعد صاحبه عن قواعد المنهج العلمي البحت. و يضيع عليه الحقيقة النظيفة لأنه درب شائك لا يسلم صاحبه من العثرات في مطباته الكبيرة، و إلا من منا لا يعرف أن علي بن أبي طالب هو إمام الفصحاء، و سيد البلغاء، و قد نقل لنا التاريخ و الروايات كثيراً من الشواهد و الأدلة بأنه حامي عرين الفصاحة أما أن محمد محيي الدين يأتي في القرن العشرين فيسلّم بذلك تسليم المضطرين فهذا لا يسمن و لا يغني من جوع.

إن الشمس لا يحجبها غربال المشككين و الغمازين واللمازين، وإذا حجبتها بعض الغيوم يوماً أو ساعة فإنها تبقى محتفظة بخواصها الفيزيائية و الكيميائية بل إنها بخاصيتها تلك تذيب الغيوم من حولها لتشرق بأشعتها الأرجوانية من جديد فتملأ الحياة حباً خلواً من الثقوب السود.

5 – أما أحمد أمين فقد اعتمد رأي المستشرقين في بلاغة و فصاحة الإمام علي عليه السلام و أسلوبه في الكلام.

متى كان المستشرق يعرف ما في الدار أكثر من صاحبها؟ بل متى كان أكثر إخلاصاً في نقل الحقيقة عن أبناء قومنا؟ حتى الذين اعترفوا برجالاتنا و أشاروا إلى معطياتهم بشيء من الإنصاف لكنهم ليسوا بالبدلاء عنا في إقرار هذا الأمر أو ذاك، لأننا عشنا حضارتنا و تواصلنا معها جيلاً بعد جيل. ولكننا نبقى نردد مغنية الحي لا تطرب و لسان حالنا يقول:

فلو غوّرت في تاريخ شعري *** و أبصرت الحقيقة ما عميت

ولكني هجرت تراث قومي *** وأقصرت الطريق وقد عييت

فداهمني الغزاة بعقر داري *** فما نافحت عنها أو نهيت

لأني مذ خلقت خلقت خصماً *** لبعضي، بل تأكلني الشتيت

فلم أشطف ثيابي عبر طستي *** فحاطت بي من الدنيا طسوت

وصرت أذب عن أفكار غيري *** و عن أفكار قومي قد غويت

نصوصياً غدوت لكل قولٍ *** غريب عن جنى قومي سهوت

كأني ما ورثت لهم تراثاً *** بِعَدِّ الرمل لكني نسيت

وصرت أغض طرفي عن تراثي *** ولكن عن تراثهمُ رويت

و ثمري لا يقيت بأرض قومي *** و لكن لو أتى منهم يقيت

و مرّ طعامهم حلو مذاقاً *** و حلو طعام قومي زقنبوت

وإن أدعى لذبٍ عن تراثي *** أراوغ، إذ كاني ما دُعيت

و لكن لو دعاني الغرب يوماً *** أقول له: لإرثك قد فُديت

فذاك لي الرواء إذا ظميت *** ولي مأوّى يقيني أو مبيت

وذاك لي الدواء إذا اعتراني *** ذبول المحل قلت به شُفيت

و أما إرثي الموروث أضحى *** لظّى لي، بل وفيه قد شويت

و قد نعتوه بالسلفي ظلماً *** و عنه بعيدة تلك النعوت

و قالوا: إنه إرث مقيت *** تقولب و هو في هذا مميت

و قالوا لم يواكب عصر قومٍ *** تناهوا فيه، بل أضحى يميت

و ما يدرون أني تهت إن لمّ *** أعب من ريِّه، بل ما حييت

و هم يدرون لكن أي بلوًى *** بأن يدروا و هم عنه سكوت (1)

ذلك هو حالنا في تقييم تراثنا، و إلا هل يحتاج رجل مثل الإمام علي عليه السلام إلى كبير عناء في إثبات مكانته في الحضارة الإسلامية؟ و دوره الكبير في بلورة الجوانب الفنية للغتنا العربية؟ وهو القائل:

هل منا مناص أو خلاص أو معاذ أو ملاذ، أو مزار، أو مجار. والقائل:

1- الأبيات من قصيدة طويلة للمؤلف تعداد أبياتها 121 بيتاً من ديوانه المخطوط ج 3

أين من جد و اجتهد، و جمع و احتشد، وبنى فشيد، وفرش فمهّد، و زخرف فنجّد.

ألا يأخذك الجرس الموسيقي بسحره الخلاب إلى عوالم حالمة تلك الثنائيات

مناص و خلاص معاذ و ملاذ مزار و محار هي إلى الشعر أقرب منها إلى النثر، بل هي مترعة بالدفق الموسيقي المنساب بعذوبة و فراهة وعفوية.

8 - دقة الوصف:

يقول محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمة تحقيق نهج البلاغة:

إن فيه من دقة الوصف و استفراغ صفات الموصوف و إحكام الفكرة و بلوغ النهاية في التدقيق كما تراه في وصف الخفاش و الطاووس و النملة و الجرادة و كل ذلك لم يلتفت إليه علماء الصدر الأول و لا أدباؤه ولا شعراؤه، وإنما عرفه العرب بعد تعريب كتب اليونان و الفرس الأدبية و الحكمية ...».

إن الإنسان في كل عصر و مكان يصدر أحكامه على النابغين من ما هو فيه فإذا رأى خارقية ما في إنسانٍ ما أنكر عليه لأنها تمخض استثنائي لم تستطع مداركه القاصرة من الوصول إلى استيعابها فيبدأ بإصدار أحكامه، التي يحسبها أدلة إنكارية قاطعة بلا عمقٍ في التأمل في شمولية الرؤية و أحياناً إنصاف في الحكم. و النابغ دائماً يكون هدفاً لذوي العقول القاصرة و النظرة الضيقة و التفكير المتحجر و الأذهان المنغلقة على نفسها.

ص: 100

و لأن النابغ سابق زمانه، فمن الصعب أن يجد من يفهمه و يستوعب قدراته و معطياته الفكرية اللهم إلا القلة القليلة من الذين يقتربون منه في الخاصية تلك و قلة هم أولئك النابغون في المجتمعات البشرية، إذ لا تزيد نسبتهم عن 1درصد إن لم تقل.

و هكذا كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام «استثناءً» في عصره و بقي استثناءً في كل العصور إلى يومنا هذا.

فليس غريباً – إذن – أن نقرأ لهذا الكاتب أو ذاك رأياً في نابغ و آخر ينكر عليه نبوغه لا لشيء إلا لكونه قاصراً في نظرته أو حاسداً إياه، أو مفترقاً عنه في المذهب أو العرق أو التفكير، أو هي مجتمعة كلها فيه. فتأتي أحكامه مبتسرة تفوح منها رائحة لم يألفها إلا هو.

لذلك نرى إن كثرة الشاكين في (النهج) لم يسلكوا طريقاً فنياً في التحليل، ولم يركنوا إلى مقياس علمي خلا العاطفة و الأغراض، و لم يكونوا صيارفة كلام أحرار متجردين عن كل شيء (1) و إلا متى كانت دقة التحليل و إجادة الوصف وقفاً على قوم دون قوم؟ أو ليس الشعر العربي مملوء بدقة الوصف و استكماله؟ ثم أليس لقرشي شهد تنزيل القرآن، و صحب أفصح العرب منذ نعومة أظفاره، و كتب له الوحي، و سمع ما يفجره الله تعالى على لسانه من ينابيع الحكمة أليس لهذا القرشي ميزة عن سائر الناس؟ (2)

ثم أما كان يجب على أولئك الكتاب الذين استكثروا على

1- تحت راية الحق

2- مصادر نهج البلاغة وأسانيده

الإمام علي عليه السلام دقة الوصف – مثلما استكثروا عليه أشياء كثيرة غيرها بلا وجه حق – أن يدرسوا شخصيته بكل جوانبها، و عند ذاك تكون أحكامهم متفقة و عظمة و استثنائية هذه الشخصية الفذة.

ثم إن علي بن أبي طالب كان يستعين بذاكرة قوية، و قدرة هائلة على اختزان صور الناس والطبيعة و أخبار البشر، و أوصاف الأشياء. و كانت دقة ملاحظته تجعله محيطاً إحاطة مدهشة بسمات الشيء الباطنة قبل الظاهرة.

و بفعل ذلك كان وصفه يتغلغل إلى عمق الظاهرة، أو الصفة، كما يتسع ليربط الظاهرة بالأخرى، و الصفة بالأخرى ليقدم رؤية شاملة تضع الجزئي في موضعه الحقيقي، ضمن العام و تضع البعض ضمن الكل، و بما أن أبلغ وصف هو ذلك الذي ينقل الصور البليغة للأشياء و يعكسها بأجمل تعبير و أقوى إيماء، وأدق وصف وأجلى تعبير، فإن سحر البيان الذي أوتيه علي بن أبي طالب كان يجعل من عملية الانعكاس الوصفي قطعاً فريدة من النصوص الوصفية التي تفخر بها العربية (1). ولكن هذا الانعكاس الوصفي الفريد كان له رد فعل معاكس لا ـ يساويه في المقدار البحثي العلمي المنهجي، بل ساواه في النكوص عن جادة الحق و التأمل المنصف، فكان ما جاء به محمد محيي الدين عبد الحميد و أحمد أمين في فجر الإسلام و الدكتور شفيع السيد و محمود محمد شاكر و غيرهم ممن أنكروا على الإمام علي عليه السلام

1- علي بن أبي طالب سلطة الحق – عزيز السيد جاسم

هذا التفرد في التفكير و النظرة و دقة الوصف هو من رد الفعل ذاك.

إن ما كان يتمتع به الإمام علي عليه السلام من خارقية فائقة التصور جعلت منه مبدعاً في ميادين الأساليب المتعددة، فهو يقدم النص الوصفي بالقدرة الرائعة التي يقدم بها النص السياسي، أو الفقهي، و الأخلاقي، ورغم أن وصف الأشياء يتصل اتصالاً دقيقاً بعملية انعكاس الأشياء نفسها في الذهن، فإن طبيعة النفس المرهفة و العقل النير تجعل من عملية الانعكاس إعادة خلق صوري للموصوف. فيصبح الموصوف في الصورة البلاغية يشبه الحقيقة الملموسة للشيء الموصوف و يتجاوزه بالجمالية الممنوحة إليه من داخل كلمات النص.

إن علي بن أبي طالب كان يستنطق الصفات واهباً إياها المقدرة على أن تستعرض نفسها بشفافية أكبر (1). تماماً كما يفعل المصور الفوتوغرافي عندما يريد التقاط صوره فهو يختار الجوانب الفنية للأشياء فتأتي صوره أكثر تأثيراً من الأصل المصور. وهنا يكون الاعتماد على قدرة هذا المصور الإبداعية في تحريك كاميرته و اقتناص اللحظة و الشكل و زاوية النظر فإذا كان مبدعاً حقاً جاءت صوره مترعة بدفق لوني ناطق بكل آيات الإبداع.

و علي بن أبي طالب عليه السلام تميز بقوة ملاحظة نادرة ثم بذاكرة واعية تخزن و تتسع فتيسرت له من ذلك جميعاً عناصر قوية تغذي

1- المصدر السابق نفسه

فكره و تقوي خياله فتسهل عليه محاكمة الأشياء و المقارنة بين عناصرها لإثبات أرجحها و أفضلها للبقاء والتعميم (1).

فليس مستغرباً – إذن – على مثل علي بن أبي طالب عليه السلام – إلا لدى قلة قليلة – أن يصف لنا ذلك الوصف الرائع لبعض الحيوان مما جعل أصحاب «الرأي ...» يقفون مذهولين أزاء هذه الصورة بل اللوحات الزيتية الرائعة التقنية فلم يجدوا لأنفسهم مفراً منها إلا الإنكار من كونها من بنات أفكار علي عليه السلام الأن عصره يفتقر إلى تلك القدرة الإبداعية ...! و إن الجزيرة العربية – و المدينة – لم تدجن الطاووس – مثلاً – الذي وصفه الإمام علي عليه السلام فأبدع في وصفه على الرغم من أن ابن أبي الحديد قد أوضح لهم أن الإمام علياً لم يشاهد الطواويس في المدينة بل بالكوفة و كانت يومئذ تجبى لها ثمرات كل شيء، و تأتي إليه هدايا الملوك من الآفاق، ورؤية المسافدة مع الذكر و الأنثى غير مستبعدة» (2).

أقول على الرغم من ذلك ظلوا يشككون في نسبة هذا الوصف الرائع للإمام علي عليه السلام متذرعين بحجج لا تقوم على دليل علمي و منطقي.

و هذا كله من الجهل بمقام أمير المؤمنين وفضله ومبلغه من العلم (3). و لكي لا نترك الكلام عارياً من شواهد من وصفه (نذكر

1- المصدر السابق نفسه

2- شرح النهج

3- مدارك نهج البلاغة للشيخ هادي آل كاشف الغطاء

نتفاً من ذلك الوصف على أننا سنعود إليه في فقرة لاحقة إن شاء الله.

قال عليه السلام يصف نملة:

انظروا إلى النملـة في صـغر جثتها و لطافـة هيأتها، لا تكاد تنال بلحظ البصـر، و لا بمسـتدق الفكر و كيف دبت على أرضـها وصُبّت على رزقها؛ تنقل الحبـة إلى جحرها و تعدها في مسـتقرها، و تجمع في حرها لبردها و في وردها لصدرها مكفولة برزقها مرزوقة بوفقها لا يغفلها المنان و لا يحرمها الديان و لو في الصـفا اليابس والحجر الجامس. و لو فكرت في مجاري أكلها، و في علوها و سـفلها و ما في الجوف من شراسـيف بطنهـا، و ما في الرأس من عينها و أذنها لقضـيت من خلقها عجباً و لقيت من وصـفها تعباً، ولو ضـربت في مـذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كل شيء، وغامض اختلاف كل حي (1)

و قال عليه السلام يصف الخفاش:

و من لطائف صـنعته و عجائب حكمته، ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضـها الضـياء الباسط لكل شيء، و يبسطها الظلام القابض لكل حي، وكيف عشـيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها وتصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها وردعها

1- مدارك نهج البلاغة للشيخ هادي آل كاشف الغطاء

بتلألؤ ضيائها عن المضي في سبحات إشراقها، و أكنّها في مكامنها، عن الذهاب في بلج ائتلاقها فهي مسدلة الجفون في النهار عن أحداقها، جاعلة الليل سراجاً تستدل به في التماس أرزاقها، فلا يرد أبصارها أسداف ظلمته و لا تمتنع من المضي فيه لغسق دجنته، فإذا ألقت الشمس قناعها و بدت أوضاع نهارها، و دخل من إشراق نورها على الضباب في و جارها أطبقت الأجفان على مآقيها و تبلغت بما اكتسبت من فيء ظلم لياليها فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً، والنهار سكناً و قراراً، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الآذان غير ذوات ريش و لا قصب، إلا أنك ترى مواضع للعروق بينة أعلاماً، لها جناحان لما يرقا فينشقا، ولم يغلظا فيثقلا و ولدها لاصق بها لاجيء إليها، يقع إذا وقعت و يرتفع إذا ارتفعت لا يفارقها حتى تشتد أركانه، و يحمله للنهوض جناحه، و يعرف مذاهب عيشه و مصالح نفسه، فسبحان الباري لكل شيء على غير مثال خلا من غيره (1).

و قال عليه السلام يصف الجرادة:

و إن شئت قلت في الجرادة، إذ خلق الله لها عينين حمراوين و أسرج لها حدقتين قمراوين، و جعل لها السمع الخفي و فتح لها الفم السوي، و جعل الحس القوي، و نابين بهما تقرض ومنجلين بهما تقبض يرهبها الزراع في زرعهم ولا يستطيعون ذبها ولو أجلبوا بجمعهم حتى ترد الحرث في

1- خطب أمير المؤمنين / لأبي الخير صالح بن حماد سلمة الرازي

نزواتها، و تقضي منه شهواتها، و خلقها كله لا يكون إصبعاً مستدقة (1).

وقال عليه السلام يصف الطاووس:

و يمشي مشي المرح المختال و يتصفح ذنبه وجناحيه فيقهقه ضاحكاً لجمال سربال و أصابيغ و شاحه، فإذا رمى ببصره إلى قوائمه زقا معولاً، و قد نجمت من طنبوز ساقه صيصية خفيفة، وله في موضع العرف قنزعة خضراء موشاة، و مخرج عنقه كالإبريق و مغرزها إلى حيث بطنه، كصبغ الوسمة البانية، أو كحريرة ملبسة مرآة ذات صقال (2).

ثم:

ولو كان كزعم من زعم أنه يلقح بدمعة تسفحها مدامعه، فتقف في ضفتي جفونه، و أن أنثاه تطعم لذلك ثم تبيض لا من لقاح فحل سوى الدمع المنحبس لما كان ذلك بأعجب من مطاعمة الغراب (3).

هذا فضلاً عن وصفه الأرض بأنهارها وجبالها وهضابها ومنبطحاتها، والسماء ونجومها وما فيها من عجائب الخلق و دقائق الصنعة (4).

1- خطب أمير المؤمنين / المروية عن الصادق عليه السلام المتوفى سنة 148 هـ

2- خطب أمير المؤمنين / لأبي محمد أو أبي بشر مسعدة بن صدقة العبدي

3- خطب أمير المؤمنين / برواية أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي الأسلمي

4- رسائل أمير المؤمنين لإبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفي المتوفى سنة 283 هـ

إن دقـة الوصف تلك من لـدن الإمام علي عليه السـلام تُعد مفخرة الحضارتنا العربية و الإسـلامية أن يبرز فيها مثل علي بن أبي طالب عليه السلام و هو يحمل في تلافيف دماغه خوارق عقلية و فكرية عجيبة يظل التاريخ مهما امتد واتسع يذكرها بفخر واعتزاز.

9 - الألفاظ الاصطلاحية

ومما تعكزوا عليه في نفي نسـبة ما في نهـج البلاغة إلى الإمام علي عليه السـلام، اسـتعمال ألفاظ اصـطلاحية، التي يزعمون أنها عرفت في علوم الحكمة بعد تعريب كتب اليونان و الفرس الأدبية

و الحكمية.

و لا أحسـبني بحاجة إلى الإفاضة في هذا الموضوع لأنني قد تحدثت عنه في كثير من المواضـيع التي مرت و أبرزها قول النبي الكريم صلى الله عليه و آله و سلم:

أنا مدينة العلم و علي بابها لذلك وجدت من المفيد الاستئناس برأي العلامة الشيخ محمد جواد مغنية، إذ يقول (1):

إن في القرآن قضايا علميـة و فلسـفية و تشـريعية لـم تعرفها العرب في عهـد النبي ولا قبله و قـد اسـتدل علماء الكلام و فلاسـفة المسـلمين بالآيـات القرآنيـة و الأحاديث النبويـة في كثير من الموضوعات الفلسـفية التي تكلموا عنها فهل هـذه الآيات منحولـة مدسوسـة؟ وهل من الضروري إذا اتفق قول مع قول أن يكون

1- فضائل الإمام علي - محمد جواد مغنية

أحدهما مصدراً للآخر، و قد أثبت علماء الغرب و الشرق من غير المسلمين بأن القرآن و السنة هما المصدر الأول للحضارة الإسلامية و علومها و فلسفتها و كلنا يعلم أن علياً هو صنو الرسول و تلميذه و نجيّه، وشريك القرآن، بل هو القرآن الناطق، و ما بين الدفتين القرآن الصامت.

و الغريب أن هؤلاء المنكرون لا يستكثرون على ابن خلدون الكلام في علم الاجتماع قبل أن يعرفه روسو (1) و مونتسكيو (2) و أن يقولوا عن علومه و معارفه: إنها تدفق فجائي و حدس باطني و اختمار لا شعوري ويستكثرون على باب مدينة العلم أن يصف الطاووس، و أن يقول: الله أيّن الأين فلا يقال له أين؟ وكيّف الكيف فلا يُقال له كيف؟ و لأن يصف الباري تعالى بصفات تليق بجلاله و هو أعرف الناس به بعد الرسول.

هذا إلى أن الإمام تكلم عن أشياء لا يعرفها اليونان ولا غير اليونان.

تلك هي كلمة الحق و الموضوعية و لكن المشككين يصمون آذانهم كي لا يسمعوها و يعصبون عيونهم كي لا يروا الحقيقة شمساً ساطعة.

1- جان جاك روسو ولد في جنيف سنة 1762م، من كبار الكتاب في علم الاجتماع الفرنسيين و من مشاهير الدعاة إلى الثورة الاجتماعية. توفي سنة 1778م

2- مونتسكيو مؤلف فرنسي له أصول النواميس و الشرائع ولد سنة 1679م و توفي سنة 1755م

10 - التقسيمات العددية

و من تشكيكاتهم في نسبة ما في نهج البلاغة إلى الإمام علي عليه السلام ورود تقسيمات عددية فيه. يقول محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمته على النهج:

وكذلك استعمال الطريقة العددية في شرح المسائل في تقسيم الفضائل أو الرذائل مثل قوله: «الاستغفار على ستة معانٍ» الإيمان على أربع دعائم الصبر واليقين والعدل والجهاد و الصبر منها على أربع شعب.

و بمثل ذلك قال أحمد أمين و غيره.

لا- أدري أين كان الكتاب من أقوال العرب قبل الإسلام و أقوال الرسول محمد صلى الله عليه و آله و سلم و أقوال الصحابة رضوان الله عليهم؟

يبدو أنهم لم يطلعوا على ذلك، و هذا نقص في الباحث عن الحقيقة فلا يحق له إعطاء الرأي - إذن -. أو أنهم يعرفون ذلك و لكنهم يريدون طمس الحقائق من خلال نفي وجودها، و هذا ليس من حقهم لأنه تراث يخص حضارة العرب منذ أن دب عربي على الأرض. و قبل أن تكون المذاهب و التعصب المذهبي، فإن غيرهم قد (فتح) عينيه (جيداً) و رأى شمس الحقيقة ساطعة و لكنها مغطاة بغربال فمزقوا هذا الغربال فظهرت الشمس «على الـ ...» و هو ما نحن بصدده، إذ ستوقظهم من نومتهم بشمس الحقيقة و تجعلهم (يفركون) عيونهم من ظلام أناخ بكلكله عليهم فحرمهم ضوء الشمس و متعة الضياء. ولكي يكون كلامنا لا ثاني له سنذكر ما جاء على لسان من تربى الإمام علي عليه السلام في حجره وأخذ عنه

ص: 110

علومه في مدرسة الإسلام الأولى وهو الرسول العظيم محمد صلى الله عليه و آله و سلم ولسان الصحابة و الخلفاء الراشدين. و هو بالتأكيد قبل صدور نهج البلاغة بقرون.

فإذا قال الإمام علي لقائل بحضرته أستغفر الله: ثكلتك أمك! أتدري ما الاستغفار؟ إن للاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معانٍ: أولها الندم على ما مضى، و الثاني العزم على ترك العودة إليه أبداً، و الثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز و جل أملس ليس عليك تبعة و الرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها، و الخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم، و ينشأ بينهما لحم جديد، و السادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله.

أقول ... فإذا قال الإمام ذلك فإن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال قبله:

ستة أشياء حسنة ولكنها من ستة أحسن العدل حسن و هو من الأمراء أحسن، و الصبر حسن و هو من الفقراء أحسن و الورع حسن و هو من العلماء أحسن و السخاء حسن و هو من الأغنياء أحسن، و التوبة حسنة و هي من الشباب أحسن والحياء حسن و هو من النساء أحسن و أمير لا عدل له كغمام لا غيث له، و فقير لا صبر له كمصباح لا ضوء له و عالم لا ورع له كشجرة لا ثمر لها و غني لا سخاء له كمكان لا نبت له، و شاب لا توبة له كنهر لا ماء فيه و امرأة لا حياء لها كطعام لا

ملح له (1) و قال: «معشر المسلمين إياكم و الزنى فإن فيه ستة خصال ثلاثة في الدنيا و ثلاثة في الآخرة، فأما التي في الدنيا فإنه يذهب البهاء، و يورث الفقر، وينقص العمر، و أما التي في الآخرة فإنه يوجب سخط الرب و سوء الحساب و الخلود في النار (2).

و قال: أخلاء ابن آدم ثلاثة واحد يتبعه إلى قبض روحه و الثاني إلى قبره و الثالث إلى محشره، فالذي يتبعه إلى قبض روحه فماله و الذي يتبعه إلى قبره فأهله و الذي يتبعه إلى محشره فعمله (3). و عن عبد الرحمن بن عوف قال: إنه دخل على أبي بكر الصديق في مرضه الذي توفي فيه فأصابه مهتماً فقال له عبد الرحمن: أصبحت والحمد لله بارئاً، فقال أبو بكر أتراه؟

قال: نعم.

قال: إني وليت أمركم خيركم في نفسي فكلكم ورم أنفه من ذلك يريد أن يكون الأمر له دونه، و رأيتم الدنيا قد أقبلت و لما تقبل و هي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير و نضائد الديباج و تألموا الاضطجاع على الصوف الآذري كما يؤلم أحدكم أن ينام على حسك، و الله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا و أنتم أول ضال بالناس غداً، فتصدونهم عن الطريق يميناً و شمالاً، يا هادي الطريق إنما هو الفجر أو البحر.

1- الإرشاد للديلمي

2- الخصال للصدوق

3- الترغيب والترهيب

فقلت له:

خفض عليك - رحمك الله - فإن هذا يهيضك في أمرك، إنما الناس في أمرك بين رجلين إما رجل رأى ما رأيت فهو معك، و إما رجل خالفك فهو مشير عليك، و صاحبك كما تحب، ولا نعلمك أردت إلا خيراً، و لم تزل صالحاً مصلحاً، و أنك لا تأس على شيء من الدنيا.

قال أبو بكر:

أجل إني لا أسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتهن وددت أني تركتهن وثلاث تركتهن وددت أني فعلتهن و ثلاث وددت أني سألت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عنهن. فأما الثلاث التي وددت أني تركتهن فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء وإن كانوا فد غلقوه على الحرب و وددت أني حرقت الفجاءة السلمي وأني قتلته سريحاً، أو خليته نجيحاً، و وددت أني يوم سقيفة بني ساعدة كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين - يريد عمر و أبا عبيدة - فكان أحدهما أميراً وكنت وزيراً.

أما اللاتي تركتهن فوددت أني يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً كنت ضربت عنقه، فإنه تمثل لي أنه لا شراً إلا أعان عليه ووددت أني حين سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردة كنت أقمت بذي القصة فإن ظفر المسلمون ظفروا و إن هزموا كنت بصدد لقاء أو مدد ووددت أني إذ وجهت خالداً إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فكنت قد بسطت يدي كليهما في سبيل الله، و مدَّ يديه. ووددت أني سألت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم

لمن هذا الأمر؟ فلا ينازعه أحد ووددت أني كنت سألته عن ميراث ابنة الأخ و العمة فإن في نفسي منهما شيء» (1).

وقال عمر بن الخطاب في حديث له:

النساء ثلاث فهينة لينة عفيفة مسلمة تعين أهلها على العيش و لا تعين العيش على أهلها و أخرى وعاء للولد، و أخرى على قمل يضعه الله في عنق من يشاء و يكفه عمن يشاء.

و الرجال ثلاثة رجل ذو رأي و عقل، و رجل إذا حزبه أمر أتى ذا رأي فاستشاره و رجل حائر بائر، لا يأتمر رشداً و لا تبع مرشداً» (2)

تلك بعض الأحاديث النبوية و الأقوال التي وردت عن أبي بكر وهي جزء يسير مما لو أردنا الإفاضة به وهدفنا الإشارة فقط إلى أن هذا اللون من الكلام متجذر في عمق الحضارة العربية ولكن إزميل محمد محيي الدين و أحمد أمين و شفيع السيد ومحمود محمد شاكر و غيرهم، إما أن يكون قصيراً فلا ينوش العمق أو من معدن رخو فلا يستطيع التوغل في البحث أو مثلّماً لا يصلح لعمل بحث علمي منهجي كهذا. أقول هذا مضطراً لأن المطابع في لبنان – خاصة – تضخ يومياً مئات العناوين من الكتب، و للكتب التراثية حصة كبيرة منها، ولكن مع ذلك نرى

1- أخرجه أبو عبيدة في (الأموال) و الطبري في تاريخه، و ابن قتيبة في الإمامة و السياسة والمسعودي في (مروج الذهب) وابن عبد ربه في (العقد الفريد)

2- غريب الحديث لابن قتيبة

أمثال هؤلاء الكتاب لم يشيروا إلى ما أشرنا، يبدو أنهم لا يريدون أن يطلعوا على تلك المصادر لكي يقنعوا أنفسهم بأن ما قالوه من المسلّمات.

أما نحن فقد أدينا مهمتنا فليؤمن من يريد أن يؤمن وليكفر من يريد أن يكفر و إنا لله وإنا إليه راجعون.

11 - التنبؤات و التوقعات

و من تشكيكاتهم في نهج البلاغة كونه احتوى بعض الخطب و الأحاديث التي تنبأ و توقع الإمام فيها وقوع أحداث مستقبلية فقالوا إنها منحولة ...! و من مدخول الكلام عليه.

قال محمد محيي الدين عبد الحميد في مقدمته على نهج البلاغة:

إن فيه عبارات ما يشم منه ريح ادعاء صاحبه على الغيب و هذا أمر يجل عن مثله مقام علي و من كان على شاكلة علي ممن حضر عهد الرسول و رأى نور النبوة.

أما عباس محمود العقاد هو الآخر يقول:

إن التنبؤات التي جاءت في نهج البلاغة عن الحجاج و فتنة الزنج و غارات التتار و ما إليها من مدخول الكلام عليه مما أضاف النساخ إلى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل (1)

1- عبقرية الإمام علي

لقد تحدثنا في الفقرة التاسعة دقة الوصف) عن الخارقية التي كان الإمام يتمتع بها في شيء من الإيجاز أو بمرور كمرور الكرام، و في فقرتنا هذه نرى أن نتوقف عندها بشيء من التفصيل غير المتوسع فيه.

إن الخارقية كعلم لم يثبت أقدامه بعد في وطننا العربي ولكنه في غير وطننا العربي دخل المختبرات و صاروا يجرون عليه التحليلات المختبرية في جوانبه كلها كما في أمريكا و الاتحاد السوفياتي (سابقاً) و لقد اهتمت تلكما الدولتان بهذا العلم و سمي (الباراسايكولوجي) أي ما وراء النفس أو الإدراك الحسي العالي، أو الخارقية كما ثبّتنا في فقرتنا التاسعة و فقرتنا هذه.

في الواقع إن الخارقية موجودة في هذا الشعب أو ذاك و في أجناس مختلفة من العالم و في عصور هي الأخرى. و لكم قرأنا أو سمعنا أن شخصاً ما ظهر في هذا المكان أو ذاك و صار يتحدث بأشياء مستقبلية ويطبب المرضى ويؤثر في الأشياء سلباً و إيجاباً بنظرة من عينيه أو يستكنه الأشياء المخفية فيُدلِ عليها و يعطي أوصافها و كمياتها أو مقاديرها. و إذا ما أردنا الخوض في هذا الموضوع فالأمثلة من الكثرة بحيث يمكن إفراد كتاب ضخم لها ولكننا سنضرب أمثلة قليلة ونمر بها سريعاً لندخل بعد ذلك في موضوعنا (التنبؤات والتوقعات عند الإمام علي عليه السلام)

في أحد الأيام دخل شاب ألماني إلى مدينة الألعاب عندهم (لونا بارك) وبعفوية محضة نظر إلى ساعته اليدوية وركز في نظره على أميالها فالتوت الأميال فتعجب من الأمر فرفع رأسه شاخصاً

ببصره إلى العربات الكهربائية السلكية و هي تجري كأنها تسير على سكة قطار على الأرض و صار يديم النظر بتركيز شديد فتوقفت العربات عن العمل وأصاب الناس الذعر فهرع مسؤولو مدينة الألعاب و فيما هم في حيرة من أمرهم أخبرهم الشاب الألماني أن توقفها كان بتأثير من عينيه و هنا سرعان ما استدعي ذلك الشاب إلى مقر لجنة من العلماء ليستفيدوا من قدرته الخارقية تلك.

و ثمة صبي اسمه (عليوف) كان طالباً في مدرسة متوسطة في مدينة (كييف) في الاتحاد السوفياتي (السابق). كان هذا الصبي لا يرتاح لدرس الأدب، و في أحد الأيام – و هو على رحلة الدرس – ركز نظره على المدرس المختص بدرس الأدب، حتى استطاع – دون أن يدري بادئ الأمر – أن يربك المدرس فصار يتلعثم بكلامه أو يذرع الغرفة جيئة و ذهاباً دون إرادته. و لما شعر المدرس بالإحراج كلف أحد الطلاب بقراءة الدرس فصار (عليوف) يركز نظره على زميله فأربكه هو الآخر فعرف (عليوف) أن ذلك كان بتأثير عينيه أخبر أهله بالأمر فصاروا يختبرونه إذ أخفوا عدة روبلات و سألوه عما أخفوا فأخبرهم ودلهم على مكانها.

و ثمة عائلة تسكن قضاء الكوفة التابعة حالياً لمحافظة النجف تعمل في صيد السمك يستطيع أفراد هذه العائلة رؤية ما خلف الثياب بقدرة خارقية من أبصارهم.

و ثمة عائلة أخرى في قضاء الهندية (طويريج) التابع لمحافظة كربلاء (حالياً) يستطيع أي واحد منها إيقاف السفن عن الحركة بمجرد النظر إليها بتركيز خاص.

و ثمة فتاة و أبوها في لبنان يستطيع الأب تسريب حرارة المحموم من جسمه بمجرد مسك يد المحموم فتتسرب الحرارة من جسمه إلى يد الرجل و منها تنتشر في الفضاء. فيما تستطيع الفتاة أن تحرك الأشياء دون أن تلمسها كما تستطيع قراءة أي كتاب بالمقلوب.

و في الستينيات من القرن العشرين ظهر صبي عراقي اسمه عادل شعلان يستطيع حل أي مسألة حسابية أو رياضية معقدة دون أن يستخدم القلم أو أي جهاز إلكتروني. و كان في الصف الخامس الابتدائي.

و مثله فتاة هندية.

و في أوائل السبعينيات ظهر صبي آخر في العراق اسمه ظافر إذ أظهره السيد كامل الدباغ في برنامجه التلفزيوني (العلم للجميع) كان يضرب أي رقم في أي رقم آخر مهما طال و يعطي النتائج بلا خطأ. حتى وصل حد الأرقام إلى ما لا توجد في أرقامنا فسماه مقدم البرنامج: (ظافريون).

و ثمة طفلة في كوريا لأبوين مدرسين في كلية الهندسة تستطيع حل أعقد المسائل الهندسية التي عجز الطلاب من حلها و قد عرضت في تلفزيون العراق.

و في العراق أشخاص كثيرون يتمتعون بكهرومغناطيسية في أجسامهم يستطيعون بواسطتها شفاء كثير من الأمراض.

كما أن بعض الأشخاص منهم لهم القدرة على التنبؤ بنتائج

الانتخابات العامة، و يتوقعون أحداثاً مستقبلية أغلبها، إن لم يكن كلها، كان صادقاً وواقعاً.

وأخيراً وليس آخراً هناك الطبيب الفرنسي الشهير صاحب التنبؤات المعروفة باسمه تنبؤات نوستر آداموس التي طبعتها الدار الوطنية لوزارة الثقافة و الإعلام في العراق. تلك التنبؤات التي اهتم بها العالم أيما اهتمام وصُوِّرت بالفيديو و عرضت على شاشات التلفزيون و هي عبارة عن رباعيات فيها توقعات أحداث خلال عشرة قرون قال شراحها إنها تحققت و ما زالت تنتظر التحقيق.

تلك كانت إلمامة سريعة عن ذوي القدرات الخارقة ومن أراد التوسع يمكنه أن يجد ذلك من خلال معاينات شخصية في الحياة أو خلال تناثرها هنا وهناك في بطون الكتب التراثية

والحديثة.

والآن نتساءل، أيهما أقرب إلى التصديق و القبول في امتلاك قدرة خارقية، الشاب الألماني أو عليوف أو عادل شعلان أو ظافر أو الطفلة الكورية أو الرجل اللبناني و ابنته أو العائلة الكوفية (السماكة) أو العائلة الطويرجاوية – نسبة إلى قضاء الهندية – أو نوستر آداموس أم الإمام علي بن أبي طالب؟

نحن لا نعرف عن أولئك الذين ذكرناهم الشيء الكثير في النسب والعراقة ولكننا نعرف عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه ربيب حجر النبوة، إذ تقول الروايات إنه عليه السلام عندما ولد جاءه الرسول محمد صلى الله عليه و آله و سلم ففتح الغشاوة فأخرج منها غلاماً حسناً فشاله

بيـده، وسـماه علياً، و بصق في فيه و أصـلح أمره ثم إنه ألقمه لسانه، فما زال يمصه حتى نام. و قـد ذكرنا ذلك من قبل. و هكـذا كان في اليوم الثاني.

إذن فعلي بن أبي طالب عليه السـلام ما كان شـخصاً عادياً مقطوع الجـذور عن العراقة العربية و النبع الإسـلامي الصافي؛ فهو إمام البلغاء و سيـد الفصـحاء و هو باب مدينـة العلم، وهو الـذي «سن الفصاحة لقريش»، وهو الذي تعلم من ذي علم، وهو الذي ورث علمه من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. فهل كثير عليه أن يتنبأ ويتوقع؟

إن العالم يقيم الدنيا و يقعدها إذا ما برز شـخص في جانبٍ ما فيه شيء من الخارقية فتبدأ الصحافة و الوسائل المسموعة و المرئية تتسابق في نشر الخبر و تنظيم اللقاءات معه، و الشواهد كثيرة عبر تاريخنا المعاصر.

فمـا بالنـا نحن العرب – و قـد برز فينا شـخص قلما برز مثله في التاريـخ – و أعني به الإمام علي بن أبي طالب عليه السـلام لا نفخر به أمام العالم باعتباره يشكل الجزء الأكثر إضاءة في حضارتنا العربية و الإسلامية؟

و للأسف أقول إننا بـدلاً من أن نزداد فخراً بشخصـية علي بن أبي طالب عليه السـلام انبرى بعض مثقفينا، لا للتقليل من شأنه عليه السـلام فحسب بل توجيه السـهام من خلال التشـكيك بمعطياته الذهنية والإبداعية ناسين أو متناسين أن التشكيك بتلك المعطيات إنما هو تشكيك بحضارتنا العربية و الإسلامية لأن علي بن أبي طالب عليه السلام يقف في رأس تلك الحضارة كأبرز معلم من معالمها

التاريخية المضيئة.

لقد خُص علي بن أبي طالب بالمعرفة الإلهامية، مثلما خص بالتوقد العقلي و قد تلقى علي عليه السلام تلك المعرفة من النبي العظيم الذي كان يلقمه العلم، ويشهده التجربة، فكانت روحه ترى ما لا تراه العين و كان ذهنه الذي يتفتق عن المعارف و الأفكار يومض بالحدس و التوقعات التي تدخل ضمن رؤى أكدتها الأحداث والوقائع (1)

إن المغيبات في نهج البلاغة إنما هي نتيجة تعلم الإمام من ذي علم فإن الله تعالى أطلع نبيّه صلى الله عليه و آله و سلم على أمور غيبية فعلّمها النبي لوصيّه و دعا له بأن يعيها صدره و تضطم عليها جوانحه، فأخبر أمير المؤمنين الناس ببعض ذلك حسب مقتضيات الأحوال، و أفضى إليهم ببعض ما سمع وما كذَب ولا كُذِّب (2).

قال الإمام موسى الكاظم عليه السلام مجيباً يحيى بن عبد الله بن الحسن لما قال له:

جعلت فداك إنهم يزعمون أنك تعلم الغيب؟

فقال عليه السلام:

- سبحان الله ضع يدك على رأسي فوالله ما بقيت شعرة فيه و لا في جسدي إلا قامت.

ثم قال:

- لا والله ما هي إلا وراثة ورثتها عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم. (3)

1- مصادر نهج البلاغة وأسانيده - عبد الزهراء الخطيب

2- أنظر أمالي الشيخ المفيد

3- أنظر عبد الفتاح عبد المقصود: الإمام علي بن أبي طالب. وعزيز السيد جاسم: علي بن أبي طالب سلطة الحق

و قال الشيخ ميثم البحراني في شرحه نهج البلاغة في كيفية علم أمير المؤمنين عليه السلام بعض المغيبات:

لا يقال لا نسلّم أن ذلك علم ألهمه الله إياه، و أفاضه عليه، بل الرسول صلى الله عليه و آله و سلم أخبره بوقائع جزئية من ذلك، و حينئذ لا يبقى بينه و بين غيره فرق في هذا المعنى فإن الواحد منا لو أخبره الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بشيء من ذلك لكان له أن يحكي ما قاله الرسول و إن وقع الخبر به على مثل قوله و يدل على ذلك قوله بعد وصف الأتراك و قد قال له بعض أصحابه في هذا المقام؛

- لقد أُعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب. فضحك و قال للرجل وكان كلياً:

- يا أخا كلب ليس هذا بعلم غيب إنما هو تعلم من ذي علم. وإنما علم الغيب علم الساعة و ما عدده الله سبحانه بقوله:

(إِنّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ) (1).

من ذكر وأنثى وقبيح وجميل، وشقي وسعيد، ومن يكون للنار حطباً، أو في الجنان للنبيين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وما سوى ذلك فعلم علّمه الله نبيه صلى الله عليه و آله و سلم فعلمنيه، و دعا بأن يعيه صدري و تضطم عليه جوانحي.

وهذا تصريح بأنه تعلم من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لأنا لا نقول: إنا لم ندع عليه السلام يعلم الغيب بل المدعى أنه كان لنفسه القدسية

1- سورة لقمان، الآية: 34

استعداد أن تنتقش بالأمور الغيبية عن إفاضة جود الله تعالى، و فرق بين الغيب الذي لا يعلمه إلا الله و بين ما ادعيناه، فإن المراد بعلم الغيب هو العلم الذي لا يكون مستفاداً عن سبب يفيده و ذلك إنما يصدق في حق الله تعالى إذ كل علم لذي علم مداه فهو مستفاد من جوده إما بواسطة أو بغير واسطة فلا يكون علم غيب و إن كان إطلاعاً على أمر غيبي لا يتأهل للإطلاع عليه كل الناس، بل يختص بنفوس خُصّت بعناية إلهية كما قال تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ) (1) فإذا عرفت ذلك ظهر أن كلامه عليه السلام صادق مطابق لما أردناه فإنه نفى أن يكون ما قاله علم غيب لأنه مستفاد من جود الله تعالى وقوله:

و إنما هو تعلم من ذي علم إشارة إلى واسطة تعليم الرسول له و هو إعداد نفسه على طول النصيحة بتعليمه، و إشارة أن كيفية و أسباب التطوع و الرياضة حتى استعد للانتقاش بالأمور الغيبية و الإخبار عنها و ليس التعليم هو إيجاد العلم - و إن كان أمراً قد يلزم إيجاد العلم - فتبين إذن، أن تعليم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لم يكن مجرد توقيفه على الصور الجزئية بل إعداد نفسه بالقوانين الكلية، ولو كانت الأمور التي تلقاها عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم صوراً جزئية لم يحتج إلى مثل دعائه وفهمه لها فإن فهم الصور الجزئية أمر ممكن سهل في حق من له أدنى فهم و إن ما يحتاج إلى الدعاء، و إعداد الأذهان له بأنواع الإعدادات هو الأمور الكلية العامة

1- سورة الجن، الآيتان: 26 - 27

للجزئيات و كيفية انشعابها عنها و تفريعها و تفصيلها وأسباب تلك الأمور المتعددة لإدراكها، و ما يؤيد ذلك قوله عليه السلام: «علّمني رسول صلى الله عليه و آله و سلم ألف باب من العلم فانفتح لي من كل باب ألف باب». وقول الرسول: أعطيت جوامع الكلم وأعطي علي جوامع العلم. و المراد بالانفتاح ليس إلا التفريع و انشعاب القوانين الكلية عما هو أهم منها، و بجوامع العلم ليس إلا ضوابطه و قوانينه. و في قوله (أُعطي) بالبناء للمفعول دليل ظاهر على أن المعطي لعلي جوامع العلم ليس هو النبي عليه السلام ابل الذي أعطاه ذلك هو الذي أعطى النبي صلى الله عليه و آله و سلم جوامع العلم و هو الحق سبحانه

أما الأمور التي عددها الله سبحانه فهي من الأمور الغيبية، و قوله:

لا يعلمها أحد إلا الله كقوله تعالى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلّا هُوَ) (1) و هو محتمل للتخصيص كما هو في قوله: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ) (2) و هذا الأمر واضح لا يحتاج العاقل إلى استكشافه إلى كلفة.

يظهر مما نقلنا عن البحراني – وقد أطلنا فيه – أن معطيات الإمام علي عليه السلام التنبؤية و التوقعية أو (الغيبية) مصدرها أمور ثلاثة هي:

1 – التكوين الخلقي: أي تكون الخلايا الدماغية التي

1– سورة الأنعام، الآية: 59

2– سورة الجن الآيتان 26 – 27

تتحسس ما هو فوق الإدراك الحسي الاعتيادي للإنسان كالحاسوب الذي بلغ من تطوره العملياتي ما تجاوز الأجيال التي سبقته في الصنعة شكلاً و محتوى أي في الحجم و الخلايا، وهذا التكوين من الله جلت قدرته.

2 – التعليم المستمر و الدربة المتواصلة والرياضة النفسية و هذا من الرسول صلى الله عليه و آله و سلم.

3 – الاستعداد النفسي في التحمل و الصبر، وهذا ما ألزم نفسه به عليه السلام فهو منه.

إذن؛ إن الإمام علياً عليه السلام لو أراده الله أن يكون كذلك فأوصى إلى نبيه الكريم محمد صلى الله عليه و آله و سلم أن يعدّه الإعداد الذي أراده الله فلبّى الرسول أوامر ربه خاصة أنه وجد في الإمام عليه السلام الاستعداد

المدهش لهذا التكليف الإلهي.

و قد كانت البصيرة المحمدية الملهمة، قد أعطت كلمات النبوءة التي فسّرت جميع ما مر به علي بن أبي طالب عليه السلام من محن أو صراعات و حروب مدمِّرة داخل الوسط الإسلامي، و من الذين خرجوا على علي بن أبي طالب رجل يقال له ذو الثدية كان – قبل ذلك – يتجاسر على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، وهو يوزع غنائم معركة (حنين).

– إعدل يا محمد!

فيتجاهله الرسول، فيكرر بصلافة:

– إعدل يا محمد!

ثم يكرر

– إعدل يا محمد فإنك لم تعدل!

فيجيبه الرسول غضباً:

– و يلك و من يعدل إذا لم أعدل؟

أراد البعض قتله، ولكن الرسول أبى ذلك، ثم قال لهم:

... سيخرج من ضئضى هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر أحدكم إلى نصله فلا يجد شيئاً، ثم ينظر إلى القذذ فكذلك سبق الفرث الدم ... يخرجون على حين غرة من الناس تحتقر صلاتكم في جنب صلاتهم، وصومكم عند صومهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم آيتهم رجل أسود محدج اليد، إحدى يديه كأنها ثدي امرأة إنهم شر الخليقة يقتلهم خير الخلق و الخليقة و أقربه عند الله وسيلة ...».

و حلَّ وقت آخر و في زمن آخر توجه فيه علي عليه السلام إلى الخوارج الذين قادوا أنفسهم إلى المذبحة و الهزيمة.

كان علي متأكداً أن «ذو الثدية» من بين قتلى الخوارج قائلاً لأصحابه:

والله ما كَذَبتُ و ما كُذِّبتُ – أُطلبوا الرجل – إنه في القوم!».

و فتشوا الجثث واحدة واحدة حتى عثروا عليه فصاح الناس:

– ذو الثدية!

خرَّ علي ساجداً شاكراً و هو يقول:

- صدق الله و رسوله!

وهلل المسلمون.

-الله أكبر ... الله أكبر!

و تؤاتيه المعرفة الإلهامية بتنبؤ مدهش حين جاؤوه بمروان بن الحكم، بعد انتصاره في حرب الجمل، و كان قد استشفع له الحسن والحسين عليهم السلام لطالبين له الغفران.

وانتهى الفتيان بعد قليل من استرحامه واستنزال عفوه على الباغي المقهور، ثم أردفا يقولان:

- يبايعك يا أمير المؤمنين.

و تأتي و مضة أخرى تميط الغطاء عن أحداث مأساوية قادمة فيا لها من ومضة تكشف عن مأساة كالحة!

كان في طريقه إلى الشام فوقف عند بقعة؛ سيشتهر إسمها (كربلاء) و ظل يرنو إليها بنظرة واجمةٍ و يهمس بصوت حزين:

ههنا ههنا ههنا موضع رحالهم و مناخ ركابهم ههنا مهراق دمائهم.

فتأخذ الناس من حديثه رجفة و يسألون في توجس و إشفاق:

و ماذا يا أمير المؤمنين؟».

و يتمهل بهم حتى إذا دارت عينه فرأت الحسين، توقف

نظره على محيّاه في رنوة حانية ندية غائمة هتف يجيب:

ثقل لآل محمـد ينزل ههنا ... فويل لهم منكم ... وويل لكم منهم ... ويل لهم منكم: تقتلونهم ... وويل لكم منهم يـدخلكم الله بقتلهم إلى النار!

و يسير ناكس الرأس إلى مطيته (1).

و نضـيف إلى ما أوردناه من تنبؤاته وتوقعاته عليه السـلام تلك الرؤيا الواقعيـة التي جعلته يرى وجه قاتله عبـد الرحمن بن ملجم المرادي ... يرى يده ... و هيأته فيحدس حدس العارف بباطن الزمن الآتى كان رسول الله يقول له:

- يا علي ... أتعلم من أشقى الأولين؟

- نعم ... عاقر الناقة.

- أتعلم من أشقى الآخرين؟

- لا ...

- من يضربك ههنا (مشيراً إلى هامته)، و يخضب هذه (مشيراً إلى لحيته).

وهاهو الأشقى يأخذ حصته من العطاء، عليّ يتفحصه مردداً:

- من يحبس أشقاها؟

1- المصدر السابق نفسه

ما كان ابن ملجم يعلم ما ادّخره له القدر من دور خسيس، لكن علياً كان يتذكر كلمات الرسول، كان يتذكر نبوءة الدم، و فعلة الشقي، فكم قال لبعض خاصته المحبين الذين كانوا يشفقون عليه، حين الحرب من خوض الحشود، و اقتحام السلاح غير آبه شيئاً بما يصيبه أثناء القتال:

إني لا أُقتل محارباً، و إنما أُقتل فتكاً وغيلة ... يقتلني رجل خامل الذكر.

و التقت العيون المذعورة واسعة الحملاق حائرة النظرات، و تناثر في الجو حوله رشاش الهمسات في تساؤل و استفسار لكن الإمام مال عنهم إلى الوافد المشبوه، فمنحه عطاءه الذي جاء له، ثم تمثل ببيت شعر لعله أن يغني عن التفسير:

أُريد حياته ويريد قتل *** عذيرك مر مليلك من مراد

هنا انبثق من البيت المروي مثل شعاع أضاء في الخواطر ما قد غمض على الناس في بدء ذلك اللقاء، من كلام الإمام، الآن رفع الغطاء و برح الخفاء و انجاب الستر عن السر المسربل بالغيب، فلا حاجة بهم إلى تعقب أمره، أو تبين ملامحه من خلال غموض الإيماء ... فطالب العطاء الذي أثار قلق القوم، و حرك فيهم الشعور بالخطر حميري من اليمن فيما يعلم نفر منهم غير قليلين نسبة آل مراد أهو حليف المراد ...؟

هلا تقتله يا أمير المؤمنين؟

- فكيف أقتل قاتلي؟

ثم قال:

- إنه إن لم يقتلني فكيف أقتل من لم يقتل؟

أي كيف يقام القصاص بغير جرم و العقاب قبل الجريمة؟

و من تنبؤاته عليه السلام لما قال:

سلوني قبل أن تفقدوني فوالله لا تسألوني عن فئة تضل مائة وتهدي مائة إلا أنبأتكم بناعقها وسائقها.

قام إليه رجل فقال:

- أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شعر.

فقال له عليه السلام:

- و الله لقد حدثني خليلي إن على كل طاقة شعر من رأسك ملك يلعنك و إن على كل طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك و إن في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم.

و كان ابنه قاتل الحسين عليه السلام طفلا يحبو - و هو سنان بن أنس النخعي (1).

وروى الحسن بن محبوب عن ثابت الثمالي، عن سويد بن غفلة أن علياً عليه السلام خطب ذات يوم، فقام رجل من تحت منبره فقال: يا أمير المؤمنين إني مررت بوادي القرن، فوجدت خالد بن

1- شرح النهج ج 2

عرفطة قدمات، فاستغفر له، فقال عليه السلام:

– و الله ما مات و لا يموت حتى يقود جيش ضلالة صاحب لوائه حبيب بن حمار فقام رجل آخر من تحت المنبر فقال:

– يا أمير المؤمنين، أنا حبيب بن حمار، و إني لك شيعة محب.

فقال:

– حبيب بن حمار؟

قال:

– نعم

قال له ثانية:

– الله إنك لحبيب بن حمار؟

فقال:

– إي والله.

فقال:

– أما و الله إنك لحاملها و لتحملنها، و لتدخلن بها من هذا الباب – و أشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة ...

قال ثابت:

فوالله ما مت حتى رأيت ابن زياد و قد بعث عمر بن سعد

إلى الحسين بن علي عليه السلام و جعل خالد بن عرفطة على مقدمته و حبيب بن حمار صاحب رايته، فدخل بها من باب الفيل» (1).

و من تنبؤاته عليه السلام: ما أخبر به أن أعشى همدان يقتل على يد الحجاج بن يوسف الثقفي فكان ما أخبر به.

تلك التنبؤات ما هي إلا غيض من فيض و بعض من كل سقناها لا لغرض إحصائي، بل للإشارة فقط لعل الذين يشككون بأقوال الإمام و خارقيته أن يمزقوا تلك الشرائق التي لفوا أنفسهم بها، كما شكك العقاد رحمه الله بما ورد عنه عليه السلام عن الحجاج و فتنة الزنج و غارات التتار، فقال عنها: «إنها من مدخول الكلام عليه. هب أن الأخبار عن الحجاج و فتنة الزنج أضيفت إلى الكتاب بعد صدوره بزمن قصير أو طويل - لأنه لا يريد أن يتهم الرضي بالوضع - و لكن كيف تضاف إلى الكتاب الأخبار عن فتنة التتار، و كل حوادث التتار من حملات جنكيز خان إلى احتلال هولاكو بغداد كان ما بين سنة (616) و سنة (656) و هذه نسخ «نهج البلاغة» المخطوطة قبل هذا التاريخ ... و فيها نسخة المتحف العراقي المؤرخة سنة (556) هـ أي قبل وقوع تلك الحوادث بمائة عام و فيها هذا الكلام الذي يشير فيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى تلك الفتن و المحن و هو لا يختلف عما في النسخ المطبوعة بل و المخطوطة أيضاً (2).

يقول ابن أبي الحديد في شرحه خطبة الإمام علي عليه السلام التي

1- المصدر السابق نفسه

2- مصادر نهج البلاغة وأسانيده - عبد الزهراء الخطيب

أشار فيها إلى التتار و اعلم أن هذا الغيب الذي أخبر عليه السلام عنه قد رأيناه عياناً، ووقع في زماننا، و كان الناس ينتظرونه من أول الإسلام حتى ساقه القضاء و القدر إلى عصرنا، و هم التتار الذين خرجوا من أقاصي المشرق ...».

لا أدري هل يكفي ما نقلنا من شواهد و ما ثبّتنا من عينات أولئك المشككين في نسبة نهج البلاغة إلى الإمام علي عليه السلام، إذا كانوا موضوعيين فإنه يكفي و إلا فهم في ضلال مبين لا يفرقون بين الليل و النهار و لا بين الظلمة والضياء، و لا بين الحق و الباطل.

فلو كان علي بن أبي طالب عليه السلام (نوستر آداموس) الطبلوا له وزمروا ولشرحوا رباعياته و عملوا لها أفلاماً عرضوها على الشاشة الصغيرة، و لقالوا فيه ما قالوا بالشواهد و الأدلة على صدق تنبؤاته. و لكن علي بن أبي طالب المسلم الأول و أصلب المجاهدين في سبيل الإسلام وابن عم الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و زوج ابنته و وصيه وباب مدينة،علمه أقول ... و لكن علي بن أبي طالب عليه السلام أذهلهم بمعطياته الذهنية فراحوا في ضلالهم يعمهون و يقولون ما لا يفقهون و يلقون الكلم على عواهنه دون الرجوع إلى الأسانيد و الثوابت التاريخية التي لا تقبل الرد والطعن.

12 - الزهد:

و مما أخذوه على النهج ما فيه من الحث على الزهد و ذكر الموت، و قرض أو ذم الدنيا على منهاج المسيح عليه السلام.

فالحيـاة الـدنيا انعكاسـات سـلوكية الإنسان عبر نشاطاته و فعالياته و معطياته المتعـددة الجوانب، والإنسان نفسه – منـذ أن هبط على هـذه الأـرض – كان أسـير مفاصل الحياة؛ فكل مفصل يشـده إليه بهـذا القـدر أو ذاك، منـذ أن كانت تلك المفاصل بسـيطة لا تتعـدى الغابـة و متطلباتها حتى تعقدت فشـملت المدينة و تمخضاتها المتسارعة و المتشابكة بوتائر حرة تتساوق مع فهم الإنسان لها و استيعابه إياها و حيناً تسـبقه في ذلك فيظل يلهث راكضاً خلف تلك التمخضات فيسـقط في هـذه الحفرة أو تلك و يصـطدم بهذا الجدار أو ذاك و تأخذه الأمواج متلاطمة بين اصـطفاق تلاطمها فلا ينجو منها إلا من كان يجيد السـباحة فيرسو على البر متأملاً ذلك التلاطم في الأمواج تأمل من يريد أن يرسم له طريقاً يجعل الحياة معبراً إلى مستقر آخر يبعده عن تلك الحفر والجدران وذلك التلاطم في الأمواج.

وكـان علي بن أبي طـالب عليه السـلام هو ذلـك السابـح المـاهر الـذي اسـتطاع أن يتبين طريقه فيتجنب السـقوط في حفر الحياة الـدنيا و الاصـطدام بجدرانها و الانجراف بأمواجها المتلاطمة، حتى إذا تمكن من ذلك تمكن الواثق من نفسه المعتمد على قدراته الإرادية المتفردة صـار يراقب أولئك المتساقطين في حفر الحياة و المصـطدمين بجـدرانها و المنجرفين بتيارات أمواجها و عنـدما اكتملت الصورة لـديه راح يخضـعها لفحوصـات مختبريـة عديـدة من حيث المنظور و التساقط اللوني و الأبعاد و غير ذلك من مقومات الصورة فخلص من تحليلاته المختبرية تلك إلى: إن على الإنسان – لكي يكون في مأمن من حفر الحياة وجدرانها وأمواجها

المتلاطمة – أن يعتمد في انعكاساته السلوكية ثالوثاً لا بد منه شاء أم أبى هو (الزهد – ذكر الموت – ذم الحياة.)

و الزهـد في نظر الإمام علي عليه السـلام له مفهوم خاص قد تفرد به بعد الرسول محمد صـلى الله عليه و آله و سـلم إذ بدأ بمحاسـبة نفسـه محاسبة شديدة و نادرة تفوق تصور العقل الإنساني؛ فقد تحدى الإمام مغريات الحياة و زخرفها البراق الخداع بخط مستقيم و ثابت و اعتمد في ذلك قانوناً صارماً سنّه لنفسه فسار بمقتضاه طوال حياته العاصفة، و القانون هو:

من نصب نفسه للناس إماماً، فليبدأ بتعليم نفسه، قبل تعليم غيره.

و كان الرسول العظيم صلى الله عليه و آله و سلم أسوته الحسنة في ذلك إذ روى عنه قائلاً:

«لقد كان صلى الله عليه و آله و سلم يأكل على الأرض و يجلس جلسة العبد و يخصف بيده نعله ويرقع بيده ثوبه ويركب الحمار العاري و يردف خلفه، و يكون الستر على باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول:

يـا فلانـة لإحـدى زوجاته غيبيه عني فإني إذا نظرت إليه ذكرت الـدنيا و زخارفها فأعرض عن الـدنيا بقلبه و أمات ذكرها من نفسه و أحب أن تغيب زينتها عن عينه لكي لا يتخذ منها رياشاً و لا يعتقدها قراراً و لا يرجو منها مقاماً».

و في التطبيق العملي نراه عليه السلام، بعد أن هاجر إلى المدينة مع

من هاجروا إشتغل في مزرعة لأحد اليهود، و بلغت ثروته ذات يوم أربعة دراهم فكره من أجلها نفسه، و سعى سعيه بالليل و النهار حتى أنفقها على ذوي حاجات فنزلت فيه الآية الكريمة: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ...) (1)

و خاطب بعض معارضيه بقوله عليه السلام:

ما تنقمون مني؟ إن هذا من غزل أهلي (و أشار إلى قميصه.)

و رآه عدي بن حاتم و بين يديه شنّة فيها قراح ماء وكسرات من خبز شعير و ملح، فقال:

- إني لا أرى لك يا أمير المؤمنين لتظل نهارك طاوياً مجاهداً و بالليل ساهراً مكابداً، ثم يكون هذا فطورك؟

فقال الإمام عليه السلام:

علل النفس بالقنوع وإلّا *** طلبت منك فوق ما يكفيها

ورد على الذين كانوا يرون في قوتها عليه السلام ما يضعف صحته، فيقعد به الضعف عن قتال الأقران و منازلة الشجعان، فقال لي عليه السلام:

كأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب، فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران، و منازلة الشجعان، ألا إن الشجرة البرية أصلب عوداً و الروائع الخضر أرق جلوداً، و النباتات البدوية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً، و أنا من رسول الله

1- سورة البقرة الآية: 274

كالصنو من الصنو و الذراع من العضد و الله لو تظاهرت الدنيا، على قتالي لما وليت عنها.

إن زهد علي بن أبي طالب عليه السلام لم يكن لنزوة طارئة و لا الحاجة مرحلية بل هو يستند على قانون ثابت مستقيم كما بيّنا. إذ وضع نصب عينيه مقولة الرسول العظيم محمد عليه السلام منهجاً له في تعامله مع قوانين الحياة.

إذ يقول عمار بن ياسر:

- سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول لعلي بن أبي طالب: يا علي إن الله عز و جل قد زيّنك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب إليه منها: الزهد في الدنيا، فجعلك لا تنال من الدنيا شيئاً و لا تنال الدنيا منك شيئاً، و وهب لك حب المساكين و رضوا بك إماماً ورضيت بهم أتباعاً، فطوبى لمن أحبك و صدق فيك، و ويل لمن أبغضك وكذب عليك (1).

إذن، فزهد الإمام علي ما كان إلا بأمر من الله على لسان رسول الله فما عليه إلا التنفيذ ليكون موضع ثقة الله و رسوله.

فالإمام في زهده ما كان هدفه أن يرسم منهجاً للناس في انعكاسات سلوكهم على بعضهم، بل كان ينفذ أمراً صدر إليه من صاحب القرار الأول على لسان رسوله و خازن وحيه محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

و نحن نستدل على هذا من كتبه و رسائله إلى عمّاله و نصحه أصحابه الخلّص. من ذلك كلامه مع عاصم بن زياد الحارثي حين

1- أسد الغابة

سمع عنه أنه لبس العباءة و تخلى عن الدنيا، فدعاه عليه السلام، فلما رأى ما هو عليه قال:

- يا عُدَيّ نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك و ولدك؟ أترى الله أحلَّ لك الطيبات و هل يكره أن تنالها؟ أنت أهون على الله من ذلك.

قال:

- يا أمير المؤمنين، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشومة مأكلك؟

قال:

- ويحك إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كي لا يتبيغ بالفقير فقره.

و منه عهده لمحمد بن أبي بكر الذي جاء فيه:

إن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا و آجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، و لم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت و أكلوها بأفضل ما أكلت فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون و أخذوا منها ما أخذ الجبابرة المتكبرون ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ و المتجر الرابح (1).

و منه رسالته لعثمان بن ضيف واليه على البصرة جاء فيها:

و لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب

1- شرح النهج

هذا القمح و نسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي و يقودني جشعي إلى تخير الأطعمة، و لعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص و لا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطاناً و حولي بطون غرثى وأكباد حرّى؟ أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين و لا أشاركهم في مكاره الزهد، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش» (1)

أما ذكر الموت في منهج الإمام علي عليه السلام – الذي ورد في النهج فأخذه المشككون حجة بعدم نسبته إليه – فهو مستمد من القرآن الكريم، الذي عاش الإمام عليه السلام تفاصيله من بدايات الدعوة الإسلامية حتى وفاة الرسول الكريم عليه السلام و انقطاع الوحي؛ فقد جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى: (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ) (2).

وقوله – جل من قائل –: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) (3)،

و قوله عز وجل:

(فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ) (4). وقوله جل شأنه: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ) (5) وقوله جلت قدرته: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) (6) و قوله عز من قائل:

1- المصدر السابق نفسه

2- سورة النساء الآية: 78

3- سورة آل عمران الآية: 185

4- سورة المائدة الآية: 106

5- سورة ق، الآية: 19

6- سورة الرحمن الآية: 26

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلّا وَجْهَهُ) (1) ... الخ.

و هـذا من الأمور البديهيـة لأن الإمام عليه السـلام منـذ نعومة أظفاره تربى في حجر النبوة و رضع من لبان الإيمان و بنى نهجه على وفق ما رأى و سـمع و تلقى من تفاصـيل الدعوة الإسلامية، بما فيها الوحي و السلوك اليومي للرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم و ما جرى في تضاعيف تلك الـدعوة من صـراعات قبليـة و مذهبيـة و انشـقاقية (الردات) و حروب، وغيرها فكونت الأساسات الإرتكازيـة لبناء الإمام الفكري و العقائـدي الشامـخ؛ فشـخصٌ تلك ارتكازاته لا بـد له أن يجعل منها منهجه في الحياة تفكيراً و تطبيقاً، وهكـذا إن ما ورد في نهج البلاغة إن هو إلا خلاصة ما نشأ و تربى عليه الإمام عليه السـلام فهو - إذن - منتسب إليه عليه السـلام بقضّهِ و قضـيضه من ألفه إلى يائه بما فيه الزهد و الموت وذم الدنيا.

و مبـدأ ذكر الموت قائم بالأساس - ليس على التشاؤم و اليأس و الهزيمة من متطلبات الحياة - على أنه يذكر الإنسان بأن يعيش شـجاعاً لا يرهب سلطاناً، ولا يجبن في نزال، ولا يكف عن القتال كريماً لا يحرص على مال، عادلاً لا يظلم بريئاً الحرص و الطمع سالماً من الخبث و الجشع، صابراً في البأساء و الضـراء، شاكراً عنـد الشـدة و الرخاء لا تزعزعه الشدائـد و لا تثني عزمه الأوابد (2)، عزيزاً لا يخزى و لا يـذل عاملاً بجد لا يكل و لا يمل لا تريبه ريبة و لا يجزع لمصيبة، لا تفسده الشهوات،

1- سورة القصص، الآية: 88

2- الأوابد: جمع آبدة وهي الداهية

ولا تقوده اللذات ولا تضعضعه البليات، لا يؤخر عملاً إلى غد مخافة أن يدركه الأجل فيفوته أجر العمل.

وهذا هو السبب في عز المسلمين في الغابر، وذلهم في الحاضر، فإنهم كانوا يذكرون الموت في جميع أوقاتهم، حتى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم كانوا لا يتركون الوضوء مخافة أن تدركهم و هم محدثون، فلما أيقنوا أنهم صائرون إلى الموت لا محالة وكانوا ذاكرين له في جميع حالاتهم هانت عليهم نفوسهم فأرخصوها في سبيل الله، وجدوا في العمل فأدركوا غاية الأمل ومن هانت عليه نفسه عز وأبى الذل وكان ذلك شعارهم في جهادهم وغزواتهم وأرجازهم وحروبهم.

هذا العباس بن علي عليه السلام في رجزه عند جهاده من هم أكثر منه عدداً وعدة:

لا أرهب الموت إذا الموت زقا *** حتى أداري في المصاليت لقى (1)

إني أنا العباس أغدوا بالسقا *** و لا أخاف الشر عند الملتقى

وقد اقتدى بذلك بأخيه الحسين عليه السلام إذ يقول في رجزه:

الموت خيرٌ من ركوب العار *** و العارُ أولى من دخول النار

و قد جرى شعراء المسلمين وأدباؤهم، في صدر الإسلام، في هذا المجرى فقال قائلهم:

و إذا لم يكن من الموت بدٌ *** فمن العار أن تموت جباناً

1- زقا: بمعنى صاح و المصاليت جمع مصلاة: و هو الرجل السريع المتشمر

وما أحسن قول المتنبي حين قال:

إذا غامرت في أمر مرومِ *** فلا تقنع بما دون النجومِ

طعم الموتِ في أمرٍ حقيرٍ *** كطعم الموت في أمرٍ عظيمِ

و كانوا يعدّون نسيان الموت ضلالاً، و ذكره هدًى وكمالاً فقال شاعرهم:

صاحِ شمّر ولا تزل ذاكر الـ *** ـموت فنسيانه ضلالٌ مبينُ

بذلك حسنت حالهم و صلحت أعمالهم، و أدركوا ما أملوا، و عز سلطانهم وقويت شكيمتهم، و سخّروا البلاد، و خضعت لهم جبابرة العباد و لما حلت الدنيا بأعينهم و تناسوا ذكر الموت أسرعوا إلى اللذات و انقادوا إلى الشهوات و هابوا الموت ففزعوا لكل صيحةٍ وصوت وتداعت أركانهم، و تزعزع سلطانهم، فهلكوا وضلوا وخابوا وذلوا فذكر الموت حياة فيه رضا الرحمن، و نسيانه ممات فيه مرضاة للشيطان (1).

أما ذم الدنيا الذي ورد في النهج فاتخذه المشككون قميص عثمان بعدم نسبة ما في «النهج إلى الإمام علي عليه السلام، فهو مردود أيضاً لأن الإمام عليه السلام لم يرد بذم الدنيا بمعنى أن نعيش في كهوف حجرية و نغل أيدينا إلى أعناقنا و ندير ظهورنا عما فيها مما خلقه الله للإنسان رحمة و نعمة فهو الذي دعانا إلى أن نأكل من طيبات الدنيا و ننعم بخيراتها من ماءٍ و شجر وطير وحيوان فـ (ألْمَالُ وَ الْبَنُونَ – هما – زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (2) فمن ترك ما خلق الله

1- إحياء الشريعة

2- سورة الكهف، الآية

في الدنيا لخدمته فهو ظالم نفسه في تركه ما وهبه الله إياه، فيبوء بخسران مبين.

و تأسيساً على ذلك إن الإمام علياً عليه السلام لم يذم ما حلل الله في الدنيا بل ذم ما حرم و ما حرّم ينسينا ذكر الله و نعمه علينا و يلهينا عما أوجبه علينا من إعداد أنفسنا لحياة الآخرة الدائمة.

فالدنيا في نهج البلاغة على ضربين:

دنيا تطلب لذاتها مع الغفلة عما ورائها و هي الغفلة عما ورائها و هي المذمومة والتي ذكرها الإمام علي عليه السلام بالدم.

و دنيا تطلب لما بعدها و تؤخذ من حلّها، و تنال من الوجه الذي أذن الله به وهي المحمودة – و قد أشار الإمام عليه السلام إليها أيضاً – لأن الدنيا خلقت لغيرها ولم تُخلق لنفسها (1). و هي دار صدق لمن صدقها و دار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن يزود منها ودار موعظة لمن اتعظ بها مسجد أحباء الله و مصلى ملائكة الله و مهبط وحي الله و متجر أولياء الله اكتسبوا فيها الرحمة و ربحوا فيها الجنة. (2)

فصفوة القول: إن أمير المؤمنين عليه السلام يرى أن ما أحل الله في الدنيا أكثر مما حرّم منها، و بمقدور الإنسان أن يتمتع بزينتها المحللة و يتناول من طيبات رزقها مع الحذر من اتباع الهوى

و طول الأمل.

1- شرح النهج

2- المصدر السابق نفسه

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) (1)وإذا استعصى على الإنسان أن يتوصل إلى ذلك إلا بما حرّم الله، (فطوبى للزاهـدين في الدنيا) (أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً وترابها فراشاً، وماءها طيباً) (2). و (و كلٌّ مقتصر عليه كافٍ) (3). و «و ما خير بعده النار بخير، و ما شر بشر بعده الجنة، و كل نعيم دون الجنة محقور، و كل بلاء دون النار عافية. (4)

و لهـذا قال عليه السـلام و الله لئن أبيت على حسك السـعدان مسـهداً، و أَجَرُّ في الأغلال مصـفداً، أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله و رسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد و غاصباً لشيء من الحطام. (5)

نخلص من ذلك كله إلى أن «الزهد و ذكر الموت و ذم الدنيا في نهج البلاغة إن هو إلا منهج اختطه الإمام علي عليه السلام لنفسه لأنه وعى حقيقة الإسـلام أكثر من غيره منذراً نفسه لمعطياته التربوية، فهو امتثال لأوامر الله بنفس راضـية مرضـية و لم يرد من ذلك هجر ما وهبه الله للإنسان و السـكن في الكهوف والغابات بـدليل أنه عليه السـلام تزوج و أولـد أولاداً و أكل وشـرب مما رزقه الله بالطيب الحلال ولكنه في ذلك كله ما كان ينسى الله وفضله على

1- سورة الأعراف الآية: 32

2- المصدر السابق نفسه

3- المصدر السابق نفسه

4- المصدر السابق نفسه

5- المصدر السابق نفسه. و انظر: مصادر نهج البلاغة و أسانيده لعبد الزهراء الخطيب

العالمين فتجنب الباطل و تمسك بالحق في سلوكه اليومي فوصلتنا انعكاساته السلوكية من ناحية المعطى الفكري من خلال النهج فهو له ومنه وإليه يعود بالنسب الصحيح و القول الصريح.

13 - وصف الحياة الاجتماعية

و مما تعكزوا عليه من تشكيك في نسبة النهج إلى الإمام علي عليه السلام، قول أحدهم: إن فيه وصف الحياة الاجتماعية على نحو لم يُعرف إلا في عصور متأخرة ... لأنه رأى أن ما ورد فيه «يشكل طعناً شديداً على الوزراء و الحكام و الولاة والقضاة والعلماء في السلوك و الأخلاق وفي الذمم و الضمائر ووصفا للقضاة بالجهل وعدم المعرفة بأحكام الشريعة» (1).

نفهم من كلام أحدهم هذا أن الإمام علياً تناول في النهج:

1 - الولاة

2 - القضاة

3 - العلماء

بما «لم يُعرف إلا في عصور متأخرة».

في الواقع إنني ما كنت راغباً في خوض هذا الموضوع و لما ألحَّ عليَّ المنهج قررت أن أمرَّ به مروراً سريعاً لا لأنني أفتقر لأدوات الرد إنما لأن الموضوع من أساسه عنكبوتي النسج

1- أنظر أثر التشيع في الأدب العربي

في مقـدماته ونتـائجه، ولكن – و بعـد إطراقـة من التفكير و التأمل – وجـدت أن الواجب يـدعوني أن أفصّل فيه بعض التفصـيل فأغوص في أعماق بحره لأُرِيَ الذين شدوا عيونهم بخرق سود لئلا يروا الشمس ساطعة فأنكروا عليها سطوعها.

أقول ... لأُرِيَهُم أن في بحر علي بن أبي طالب لمرجاناً كثيراً و ياقوتاً مختلفةً ألوانه.

لا شك أن أي متتبع – موضوعياً كان أم غير موضوعي – يعرف أن التاريخ الإسلامي – منذ بدء الدعوة المحمدية حتى نهاية الحكم الراشدي – كان يتميز بعدم الاسـتقرار السياسـي و الاقتصادي و المالي وغيرها من مرتكزات أي نظام و ذلك أمر طبيعي لأن ما جاء به الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه و آله و سلم بوحي من الله، لم يكن بالأمر الهيِّن ولا هو من طراز التغييرات الشكلية في البنى الفوقية، أو الهيكلية المعروفـة في ذلـك العهـد أو غيره، ممـا قبله وبعـده، بـل كان يهـدف إلى تغيير جـذري وشامل في البناء الفوقي – ليس في الجزيرة العربية فحسب، بل في العالم كله –.

(وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (1)

و العلاقـات التحتيـة مع قمـة ذلـك الهرم المبني على علاـئق اجتماعيـة غايـة في التخلف السياسـي و الاقتصادي و الفكري، هو قائم على مرتكزين أساسيين هما:

«السيد و المسود» أو «المالك والمملوك».

1- سورة الأنبياء، الآية: 107

و أي خروج على ذينك المرتكزين كان يُعد خروجاً على قيم هي موضع اعتزازهم الشديد، بل هي مما لا يمكن السكوت على أي تغيير يحصل في بنائه الهرمي ذاك، لأنها كانت متجذرة في عمق التاريخ العربي، ولكن جاءت الدعوة الإسلامية فخضخضت ذلك البناء فوجدته «نمراً من ورق» فوضعت على مرتكزاته معول الحق فانهار انهياراً عجيباً، وعبثاً كانت محاولاته في لعق جراحاته لأن معول الإسلام كان يحفر في العمق من ذلك الجذر ليقتلعه من أساسه، وهكذا بدأ الإسلام يؤسس مرتكزات جديدة لبناء قيم جديدة عليها بما لم تألفه الجزيرة العربية؛ إذ جعل العبد بإزاء سيده بل فضّل له أحياناً عليه لا فضل لقرشي على حبشي إلا بالتقوى و كلكم لأدم و آدم من تراب و «كلكم سواسية كأسنان المشط و كلكم راع و كلكم مسؤول عن رعيته و «المسلمون إخوة» و (إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (1). و تلك القيم الجديدة لا شك أنها ليست جديدة عليهم في التلقي و وجوب التنفيذ فحسب، بل هي مما شكلت صفعة قوية لذلك الموروث المتجذر في أعماق النفس العربية: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (2)

و دليلنا أن أول من آمن بالدعوة الإسلامية، في ساعاتها و أيامها الأول هم أولئك العبيد الذين ارتبط مصيره_ بأراضي أسيادهم كالحيوان و الشجر بل الحيوان و الشجر أفضل منهم

1- سورة الحجرات، الآية: 13

2- سورة الرعد الآية: 11

لأنهما كانا يجـدان من يخـدمهما و لكن العبيـد قد «خُلقوا للخدمة ...!» فقط فلا أحد يقيم وزناً لآدميتهم و تركيبهم الإنساني من مشاعر و عواطف و أحاسيس، حتى كانت الشرارة الأولى لثورة الحق فزحفوا نحوها و حملوا مشاعلها في طريق وعر لاحب.

أما السادة – ما خلا النفر القليل منهم – فقد دخلوا الإسـلام مضـطرين غير مؤمنين ليحافظوا على مياه وجوههم و مراكزهم الاجتماعية إزاء هذا الزحف النوراني الكبير.

و لكن هل يبقى أولئك السادة مستسلمين لهذا التغيير الجذري الشامل؟

إن التاريخ ليذكر – منذ بدء التدوين – أن لكل ثورة سـقوطاتها على الطريق، و ثمة عبارة تقول: «الثورة تأكل أبناءها» و هذا أمر طبيعي جداً، خاصـة في ثورة مثل الثورة الإسـلامية الانقلابيـة ذات القيم الشـمولية الجذريـة – وقـد ألمحنا إلى ذلك في فقرة سابقـة – إذ ما إن اسـتقرت الأوضاع لصالـح الإسـلام – كعقيـدة – في الجزيرة العربية في الأقل حتى بدأ التململ يشـكل ظاهرة في صـفوف عِلية القوم فكانت الآيات القرآنيـة تنزل تباعاً ناصـحة حيناً و مرشـدة أحياناً ومحـذرة مرة ومتوعـدة تارةً وناعتة إياهم بـ المنافقين والماكرين والمجرمين كما نعتتهم بالكـذب والزور والبهتان والرياء والخديعة، وما إلى ذلك من صـفات أولئك الذين دخلوا دين الله لتطمين مصالحهم وهم بذلك مضـطرون حيال هذا الزحف الذي أفقدهم صوابهم.

وبعد صحوتهم تلك صاروا يخططون للالتفاف على «الثورة»

فأبدوا تقرباً عجيباً من قيادتها الأساسية محمد بن عبد الله صلى الله عليه و آله و سلم ثم من القادة الذين أعقبوا الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فتغلغلوا في المناصب المختلفة، السياسية منها و الإدارية والفقهية والقضائية والعسكرية، و بذلك استطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على الهيكل الهرمي لدولة الإسلام – خاصة بعد رحيل الرسول الكريم عليه السلام إلى اللطيف الخبير – ليس بالنمطية العربية قبل الإسلام بل بنمطية جديدة تتفق و الواقع الجديد، بازدواجية غير منظورة إلا لمن يمتلك إدراكاً حسياً عالياً ومجسّات غاية في التحسس مثل الإمام علي عليه السلام فهم إما أن يكونوا تجاراً أو أرباب مهن فهؤلاء صاروا – باسم الإسلام – يوسعون قاعدتهم على حساب القيم الجديدة و باسمها.

فماذا ننتظر من الإمام علي عليه السلام، و هو الذي يمتلك «أُذناً واعية» و رضع لبان العلم من رضاب رسول الرحمة وقائد التغيير الجذري الشامل؟

هل يدع أولئك على كيفهم يحفرون لهم أسساً جديدة و يضعون فيها مرتكزات جديدة مخالفة – في تخطيطها و هندستها – ما جاء به الإسلام؟ أم يتصدى لهم لتبصيرهم أولاً و لتحذيرهم ثانياً و لتعريفهم للرعية ثالثاً؟

ذلك ما فعله منذ أول بادرة ظهرت للانحراف عن مبادئ الإسلام فقال عن أولئك المتاجرين بالإسلام المقيم منهم والمضطرب بماله و المترفق ببدنه فإنهم مطرد المنافع وأسباب المرافق، وجلّابها من المباعد و المطارح، في برّك و بحرك، و سهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها و لا يجترئون

عليها، فإنهم سـلم لا تُخاف بائقته و صـلح لا تخشـى غائلته، و تفقد أمورهم بحضرتك، و في حواشي بلادك ...». و أردف قائلاً: «و اعلم – مع ذلك – أن في كثير منهم ضـيقاً فاحشاً، وشـحاً قبيحاً، و احتكاراً للمنافع، و تحكماً في البياعات، و ذلك باب مضـرّة للعامة و عيب على الولاة، فامنع من الاحتكار فإن رسولالله صـلى الله عليه و آله و سـلم منع منه. و ليكن البيع بيعاً سمحاً، بموازين عدل، و أسعار لا تجحف بالفريقين من البائع و المبتاع فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكّل به، وعاقبه في غير إسراف» (1)

ليس بتلك الإشارة التبصـيرية وحـدها أشار الإمام عليه السـلام إلى عامله على مصـر بل ترصـد تحركاً آخر هو إبقاء الأرض يباباً بلا عمران لتظـل أمور أولئـك «التجـار» «ماشـية» في التفافهم على مبادئ القيم الجديـدة مما جعل الإمام ينبّه عامله مالك الأشتر على مصـر بقوله: (وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء أو قلة انتفاعهم بالعبر ... وتفقد أمر الخراج بما يصـلح أهله فإن في صـلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لغيرهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في اسـتجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، و لم يسـتقم أمره إلا قليلاً، فإن يشـكو ثقلاً أو علـة أو انقطاع شـرب أو بالّة أي مطر يبل الأرض، أو إحالة أرض

1- من رسالة إلى مالك الأشتر / شرح نهج البلاغة

اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم، فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك، وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم و تبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قولهم؛ بما ذخرت عندهم من إجماعك لهم و الثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم ... فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به، فإن العمران محتمل بما حملته.

ولأنه عليه السلام يعلم بنواياهم و مقاصدهم و نوازعهم وركضهم الحثيث وراء منافعهم الذاتية نراه في اليوم الثاني من بيعته خطب قائلاً:

أيها الناس إنما أنا رجل منكم لي ما لكم.. وعليَّ ما عليكم ... وإني حاملكم على منهج نبيكم، و منفذ فيكم ما أُمرت به، إنّ في العدل سعة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق أيها الناس.. ألا لا يقولن رجال منكم – غداً – قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيل و اتخذوا الوصائف الروقة ... إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه و أصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا ... ألا وأيما رجل من المهاجرين و الأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته فإن الفضل غداً عند الله و ثوابه وأجره على الله ... ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله فصدق ملتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب

حقوق الإسلام وحدوده فأنتم عباد الله، والمال مال الله يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحد على أحد، و للمتقين عند الله أحسن الجزاء فإذا كان الغد فاغدوا علينا إن شاء الله، ولا يتخلفن أحد منكم ... من أهل العطاء.

فهل يرضي ذلك أولئك الذين لم يعتنقوا الإسلام إلا بعد أن رأوا فيه واقعاً لا محيص عنه فرفعوا راية الاستسلام بدل راية الإسلام، ولكنهم ظلوا يتحينون الفرص لاستعادة مجدهم، ولما تولى الإمام علي عليه السلام، الأمر و صار يحكم بمبادئ القرآن وسنة محمد صلى الله عليه و آله و سلم توجهوا إليه بطريقة التفافية أن يخفف عنهم في سياسته، أجابهم عليه السلام:

أتأمروننني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؟

و الله ما أطور به ما سمر سمير و ما أمَّ نجمٌ في السماء نجماً ...! لو كان المال لي لسويت بينكم، فكيف وإنما المال مال الله؟

ألا و إن إعطاء المال في غير حقه تبذير و إسراف، و هو يرفع صاحبه أو يضعه في الآخرة.

و هذه السياسة إن وافقت بعض المسلمين المؤمنين حقاً بمبادئ الإسلام فإنها لا توافق أولئك الذين أعمت الدنيا بصائرهم فأنستهم نقاء المبادئ و صفاء العقيدة و بهاء القيم النبيلة التي جاء بها الإسلام، الذي ساوى بين العبد و سيده و جعل التقوى مقياساً يُعرفُ به المسلم المؤمن من المنافق، و أبرز ما في المساواة الصلاة و الزكاة والحج، إذ أن الصلاة يستوي فيها العزيز والذليل

ويقفان موقفاً بمكان واحـد ينطقان بنفس الألفاظ ويأتيان نفس الحركات ونلمس في الزكاة التي تؤخذ من الغني بعض عروض الحياة لتردها على الفقير حتى يشـعر كلاهما، وإن باعـدت بينهما الأنساب بشـعور الإخاء، ونلمسـها في الحـج، تزدحم بأرضه المقدسـة أقـدام الرجال والنساء فلا يميز بينهم فارق واحـد، بمناسك الحـج حفاة شـبه عراة لا يسترهم إلا ذات اللباس يسـتوي فيه كافة الناس أردية الأكفان التسوية الحقة هي جماع الإسلام و الغاية التي هدفت إليه شعائره و تعاليمه وأتاح لهم جميعاً تكافؤ الفرص في موقفهم أمام الله (1)

وهذا ما انتهجه الإمام علي عليه السلام في سياسته المالية إذ:

دخل على بيت مال البصـرة في جماعـة من المهاجرين و الأنصار فنظر إلى ما فيه من العين و الورق، فجعل يقول يا صـفراء غري غيري و يا بيضاء غرّي غيري ... و أدام النظر إلى المال مفكراً، ثم قال:

«أقسموه بين أصحابي و من معي خمسمائة خمسمائة، ففعلوا فما نقص درهم واحد وعدد الرجال إثنا عشر ألفاً» (2)

و كـان يخف دائمـاً إلى تقسـيم الأعطيـات على النـاس، كلما اجتمع لـديه منها شـيء، ويكره أن يؤخرها عنهم، كأنما يتأثم من إرجائها، أو اكتنازها إلى حين» (3)

1- الإمام علي بن أبي طالب عبد الفتاح عبد المقصود

2- المسعودي / مروج الذهب

3- الإمام علي بن أبي طالب / عبد الفتاح عبد المقصود

وكان يخاطب أهل الكوفة بقوله: يا أهل الكوفة إذا أنا خرجت من عندكم بغير راحلتي ورحلي وغلامي، فأنا خائن».

لقد كان عليه السلام حريصاً على أموال المسلمين شديداً مع ولاته إن هم حادوا عن الطريق القويم، إذ كتب يوماً إلى زياد بن أبيه:

«وإني أقسم بالله قسماً صادقاً لئن بلغني أنك خنت في المسلمين شيئاً صغيراً وكبيراً، لأشدنَّ عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر، ضئيل الأمر ...».

وخاطبه في كتاب آخر: فدع الإسراف مقتصراً، واذكر في اليوم غداً، وأمسك من المال بقدر ضرورتك، وقدم الفضل ليوم حاجتك، أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت من المتكبرين، وتطمع وأنت متمرغ في النعيم تمنعه الضعيف و الأرملة أن يوجب لك ثواب المتصدقين؟ وإنما المرء مجزيٌّ بما سلف وقادم على ما قدم ... والسلام.

وكذلك خاطب الأشعث بن قيس عامله في آذربايجان بقوله:

وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه في عنقك أمانة وأنت مسترعًى لمن فوقك، ليس لك أن تفتات (أي تستبد) في رعية، ولا تخاطر إلا بوثيقة، وفي يدك مال من مال الله عز وجل، وأنت من خزّانه حتى تسلّمه إليّ، ولعلي ألا أكون شر ولا تك لك ... والسلام.

أما مصقلة بن هبيرة الوالي على بعض مقاطعات فارس فقد

ألزمه عليه السلام، بإعادة المبلغ الذي أخذه من بيت المال و الذي أنقذ فيه من الأسر خمسمائة رجل معظمهم من بني بكر بن وائل قوم مصقلة، فقال له في كتاب:

بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك، وعصيت إمامك، إنك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وخيولهم و أريقت عليه دماؤهم فيمن اعتامك من أعراب قومك، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لئن كان ذلك حقاً لتجدن لك عليّ هواناً ولتخفّن عندي ميزاناً فلا تستهن بحق ربك، و لا تصلح دنياك بحق دينك، فتكون من الأخسرين أعمالاً.

و لما طلب منه عليه السلام المغيرة بن شعبة أن يبقي على الولاة الذين ولاهم عثمان أجابه عليه السلام بحزم:

و الله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيي، ولا وليت هؤلاء ولا مثلهم يُولّى.

ولما أكد المغيرة على إبقاء معاوية لأن له جرأة، وهو في أهل الشام يسمع منه ...» أجابه بالحزم نفسه:

لا والله.. لا أستعمل معاوية يومين أبداً.

وكذلك عندما طلب إبن عباس منه ذلك عليه السلام أجابه:

لا و الله، لا أعطيه إلا السيف.

و يرفع شعاره الذي اتخذه مرتكزه الأساس في سياسته العامة و هو:

إن الرعية لا تصلح إلا بصلاح الولاة.

و يطرح معادله الموضوعي في الربط بين الراعي و الرعية فيقول عليه السلام:

... و أعظم ما افترضه سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه لكلٍّ على كلٍّ فجعلها نظاماً لالفتهم وعزاً لدينهم.

فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية، فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه وأدى الوالي إليها حقها، عز الحق بينهم و قامت مناهج الدين و اعتدلت معالم العدل، و جرت على إذلالها السنن فصلح بذلك الزمان فطمع في بقاء الدولة، و يئست مطامع الأعداء، و إذا غلبت الرعية و اليها، أو أجحف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة و ظهرت معالم الجور، وكثر الإدغال في الدين أي الفساد وتركت حجاج السنن فعمل بالهوى و عطلت الأحكام وكثرت علل النفوس، فلا يُستوحش لعظيم حق عُطِّل، ولا لعظيم باطل فُعل ...

فهناك تذل الأبرار، و تعز الأشرار وتعظم تبعات الله سبحانه عند العباد فعليكم بالتناصح في ذلك، و حسن التعاون عليه فليس أحد - وإن اشتد على رضا الله حرصه وطال في العمل اجتهاده - ببالغ حقيقة ما الله سبحانه أهله الطاعة له، من ولكن من واجب حقوق الله على عباده النصيحة بمبلغ جهدهم، و التعاون على إقامة الحق بينهم وليس امرؤ - وإن عظمت في

الحق منزلته و تقدمت في الدين فضيلته – بفوق أن يُعان على ما حمّله الله من حقه ولا امرؤ – وإن صغرته النفوس، واقتحمته العيون – بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه (1)

وجعل عليه السلام من العدل جادته التي لا يحيد عنها و شمسه التي يستحم بدفئها و يستنير بضيائها، وفي هذا الإطار يكتب إلى الأسود ابن قطيبة صاحب جند حلوان بفارس يقول عليه السلام:

«أما بعد فإن الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيراً من العدل فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء، فإنه ليس في الجور عوض عن العدل. فاجتنب ما تنكر أمثاله، و ابتذل نفسك فيما افترض الله عليك راجياً ثوابه، و متخوفاً عقابه.

و اعلم أن الدنيا دار بلية لم يفرغ صاحبها منها قط ساعةً إلا كانت فرغته عليه حسرة يوم القيامة.

و إنه لن يغنيك عن الحق شيء أبداً، ومن الحق عليك حفظ نفسك و الاحتساب على الرعية بجهدك فإن الذي يصل إليك من ذلك أفضل من الذي يصل بك والسلام.

و يجمل عليه السلام صفات الوالي العادل بقوله:

إن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل، هُدِيَ وَهَدى، فأقام سنةً معلومة وأمات بدعة مجهولة وإن السنن النيرة لها أعلام وإن البدع لظاهرة لها أعلام وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضلَّ وضُلَّ به فأمات سنّة مأخوذة، وأحيا بدعة متروكة وإني

1- نهج البلاغة

سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم يقول:

يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر و ليس معه نصير ولا عابر فيلقى في نار جهنم فيدور فيها كما تدور الرحى، ثم يرتبط في قعرها»(1)

ويستخدم الإمام علي عليه السلام المتقابلات في معادلات حسابية بسيطة لتوضيح معنى العدل ومعنى العلاقة بين العامة و الخاصة، أي بين الراعي والرعية فيقول من كتاب له إلى مالك الأشتر:

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق و أعمها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة، و إن سخط الخاصة يُغتفر مع رضا العامة و ليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة في البلاء، وأكره للإنصاف، و أسأل بالإلحاف و أقل شكراً عند العطاء، و أبطأ عذراً عند المنع، و أضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة، و إنما عماد الدين و جماع المسلمين و العدة للأعداء؛ العامة من الأمة، فليكن صفوك لهم، و ميلك معهم (2).

و كان عليه السلام يوصي عماله بعدم الاحتجاب عن الرعية و يدعوهم إلى مخالطتهم ليسمعوا منهم و ليقفوا على همومهم و تطلعاتهم.

قال عليه السلام يوصي قثم بن العباس عامله على مكة:

1- المصدر السابق نفسه

2- المصدر السابق نفسه

لا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك، ولا حاجب إلا وجهك ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك بها فإنها إن ذيدت عن أبوابك فى أول ردها لم تُحمد فيما بعد على قضائها (1).

وكتب عليه السلام إلى الأشتر يوصيه:

... فلا تطولن احتجابك عن رعيتك، فإن احتجاب الولاة عن الرعية، شعبة من الضيق و قلة علم بالأمور و الاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير و يعظم الصغير، ويقبح الحسن، و يحسن القبيح، ويشاب الحق بالباطل وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور وليست على الحق سمات تُعرف بها ضروب الصدق من الكذب، وإنما أنت أحد رجلين؛ إما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق، ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه، أو فعل كريم تسديه، أو مبتلى بالمنع فما أسرع كف الناس عنك مسألتك إذا أيسوا من نبلك مع أن أكثر حاجات الناس إليك ما لا مؤونة فيه عليك، من شكاة مظلمة، أو طلب لإنصاف في معاملة ... و اجعل لذوي الحاجات قسماً تُفَرِّغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً، فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتُقعِد عنهم جندك و أعوانك، من حرسك و شُرطك، حتى يكلمك مكلمهم غير متتعتع ...

ثم احتمل منهم الخرق و العين (الخرق: العنف و العين: العجز عن النطق) و نحِّ عنهم الضيق و الأنف، يبسط الله عليك

1- المصدر السابق نفسه

بـذلك أكناف رحمته، و يوجب لك ثواب طاعته، وأعط ما أعطيت هنيئاً، و امنع في إجمال و إعـذار ثم أمور من أمورك لا بد من مباشـرتها، منها إجابة عمالك، بما يعيا عنه كتابك، و منها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك بما تحرج به صدور أعوانك» (1).

وحـذر عليه السـلام الأـشتر من أولئـك الـذين قلنـا إنهم اعتنقوا الإسـلام لاـ بسـبب إيمـانهم بمبـادئه بل لكونه صار أمراً واقعاً فخافوا على مصالحهم و امتيازاتهم فانخرطوا في صفوفه، و مع ذلك فقد تغلغلوا في المناصب العليا فقال عليه السلام يوصي الأشتر و يحذره منهم:

إن شـر وزرائك من كان للأشـرار من قبلك وزيراً و من شـركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانـة، فإنهم أعوان الأئمـة و إخوان الظلمة، و أنت واجـد منهم خير الخلف ممن له مثـل آرائهم و نفـاذهم وليس عليه مثل آصارهم و أوزارهم ممن لـم يعاون ظالماً على ظلمه و لا آثماً على إثمه أولئك أخف عليك مؤونـة، و أحسن لك معونـة، و أحنى عليك عطفاً، و أقل لغيرك إلفاً، فاتخـذ أولئك خاصـة لخلواتك و حفلاتك، ثم ليكن آثرهم عنـدك أقولهم بمرِّ الحق، وأقلهم مساعـدة فيمـا يكون منك، مما كره الله لأوليائه، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع، و ألصق بأهل الورع و الصدق، ثم رضهم على أن لا يطروك و لا يبجحوك بباطل لـم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو و تدني من الغرة (2)

1- المصدر السابق نفسه

2- المصدر السابق نفسه

ثم يعكس المعادلة فيوصيه باختيار من هم بالمروءة ألصق و كذلك بالكرامة و الشرف و الصدق إذ أنهم من يؤتمن جانبهم فلا يخونون صاحبهم، فقال عليه السلام:

ثم الصق بذوي المروءات و الأحساب وأهل البيوتات الصالحة و السوابق الحسنة، فإنهم جماع من الكرم و شعب من العرف (أي المعروف) (1).

وبعد أن ينتهي عليه السلام من إيصائه باختيار رجاله يوصيه بكبح جماح نفسه وصدها عن الشهوات التي تبعده عن دينه و تخلخل إيمانه، إذ يقول عليه السلام:

و إنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح، فاملك هواك وشحَّ بنفسك عما لا يحل لك، فإن الشح بالنفس الإنصاف منها في ما أحبّت أو كرهت و أشعر قلبك الرحمة للرعية و المحبة لهم و اللطف بهم ... ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ... اجتنب ما تنكر أمثاله ... إن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، فيقولون فيك ما كنت تقول فيهم.

ثم يخلص عليه السلام من الخاص إلى العام فيحلل النفس الإنسانية تحليلاً علمياً لن يقول بغيره أحد علماء العصر، إذ يقول عليه السلام: الناس صنفان إما أخٌ لك في الدين أو نظير لك في الخلق،

1- المصدر السابق نفسه

يفرط منهم و تعرض لهم العلل، و يؤتى على أيديهم في العمد و الخطأ فأعطهم من عفوك و صفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه و صفحه فإنك فوقهم و والي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك.

ثم حدد له أسس التعامل مع رعيته بما يضمن سلامة الحكم و تكافؤ الفرص وإشاعة الأمن و الاستقرار و نشر العدالة الإنسانية إذ يقول له عليه السلام:

لا يكونن المحسن و المسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان و تدريباً لأهل الإساءة على الإساءة (1).

ثم لا تنقض سنّة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، و اجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية ولا تحدثن سنّة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنّها و الوزر عليك بما نقضت منها (2)

ثم و أكثِر من مدارسة العلماء و مناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، و إقامة ما استقام به الناس قبلك.

ثم إياك و المن على رعيتك بإحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك، فإن المن يبطل الإحسان و التزيد يذهب بنور الحق و الخلف يوجب المقت،

1- المصدر السابق نفسه

2- المصدر السابق نفسه

عند الله،والناس قال تعالى: (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) (1)

ثم يذكر عليه السلام شروط الوالي (الحاكم) فيأتي بالسبب و نتيجته في صفات عديدة للوالي، فيقول له عليه السلام:

و قد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج و الدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين البخيل فتكون في أموالهم نهمته و لا الجاهل فيظلهم بجهله، و لا الجافي فيقطعهم بجفائه، و لا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، و لا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق و يقف بها دون المقاطع، و لا المعطل للسنة فيهلك الأمة.

وروي أن شريح بن الحارث القاضي، اشترى على عهده عليه السلام داراً بثمانين ديناراً، فبلغه ذلك فاستدعى شريحاً و قال له:

بلغني أنك ابتعت داراً بثمانين ديناراً، و كتبت لها كتاباً و أشهدت فيه شهوداً.

فقال شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين.

فنظر إليه عليه السلام نظرة المغضب ثم قال:

يا شريح أما أنه سيأتيك من لا ينظر في كتابك و لا يسألك عن بينتك، حتى يخرجك منها شاخصاً، ويسلمك إلى قبرك

1- سورة الصف، الآية: 3

خالصاً، فانظر يا شـريح لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك و نقدت الثمن من غير حلالك، فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا و دار الآخرة! أما أنك لو أتيتني عند شرائك ما اشتريت لكتبت لك كتاباً على هذه النسخة، فلم ترغب بشراء هذه الدار بدرهم فما فوق.

أما عثمان بن حنيف الأنصاري عامل الإمام علي عليه السـلام في البصـرة، فقد دعي إلى وليمة قوم من أهل البصـرة، فمضى إليها فبلغ ذلك الإمام علياً عليه السلام فكتب إليه مستنكراً ذلك قائلاً:

أما بعد يا بن حنيف، فإن رجلاً من فتية أهل البصـرة دعاك إلى مأدبة فأسـرعت إليها، تستطاب لك الألوان، و تنقل إليك الجفان، و ما ظننت أنك تجيب إلى طعام قومٍ عائلهم مجفو و غنيهم مدعو فانظر إلى ما تقضـمه من هذا المقضم فما اشتبه عليك علمه فالفظه و ما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه.

ثم تحدث عليه السلام عن منهجه في الحكم فدعا الولاة أن يعينوه على إنجاح هذا المنهج فقال عليه السلام مخاطباً ابن حنيف:

ألا و إن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضـيء بنور علمه، ألا و إن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه (أي ثوبيه البالييين) و من طعمه بقرصيه (أي رغيفيه)، ألا و إنكم لا تقـدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورعٍ و اجتهاد و عفة و سداد، فوالله ما كنزت من دنياكم تبراً، و لا ادخرت من غنائمهـا و فرا، و لا أعـددت لبالي ثوبي طمرا و لا حزت من أرضـها شبرا، و لا أخـذت منه إلا كقوت أتان دبرة التي عقر ظهرها فقل أكلها و هي في عيني

أوهى و أهون من عقصة مقرة ... و إنما هي نفسي أروّضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، و تثبت على جوانب المزلق (كناية عن الصراط)، و لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل، و لباب هذا القمح و نسائج هذا القز، و لكن هيهات أن يغلبني هواي و يقودني جشعي إلى تخير الأطعمة أو أبيت مبطاناً و حولي بطونٌ غرثى و أكباد حرّى أو أكون كما قال القائل:

و حسبك داءٌ أن تبيت ببطنةٍ *** و حولك أكبادٌ تحن إلى القدِّ

أأقنع من نفسي أن يقال: هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش! فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسلة إلى شغلها تقممها (أي أن البهيمة السائبة شغلها أن تلتقط القمامة) تكترش من أعلافها، و تلهو عما يراد بها، أو أترك سدى أو أهمل عابثاً، أو أجر حبل الضلالة، أو أعتصف طريق المتاهة)

لم يكتف عليه السلام بمحاسبة ولاته عن أي حيدة عن الطريق الذي رسمه لهم الإسلام بل صار يحاسب نفسه أيضاً، و كمثال على ذلك نقرأ قوله عليه السلام و قد أرسل إليه أحد ولاته هدية هي عبارة عن حلوى ملفوفة في وعاء فقال له عليه السلام:

و أعجب من ذلك طارقٌ طرقنا بملفوفةٍ في وعائها، ومعجونة شنئتها أي كرتها كأنما عجنت بريق حية أو قينها، فقلت: صلة أم زكاة أم صدقة؟ فذلك محرم علينا أهل البيت

فقال: لا ذا ولا ذاك ولكنها هديـة فقلت هبلتك الهبول (وهي المرأة التي لا يعيش لها ولـد) عن دين الله أتيتني لتخدعني، أمختبط أنت أم ذو جِنّة أم تهجر أي تهذي.

و الله لو أعطيت الأقاليم السـبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصـي الله في نملة ... أسلبها جلب أي قشرة شعيرة ما فعلته و إن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة ما لعليٍّ و لنعيم يفنى و لذة لا تبقى نعوذ بالله من سبات العقل، وقبيح الزلل وبه نستعين.

و قصة النجاشـي شاعر الإمام الذي طالما مدحه و هجا خصومه و الذي تعرض هو الآخر إلى الجلد بعد أن وجده الإمام مفطراً في رمضان و ثملاً من السكر ليست بعيدة عن الأذهان.

كما أن الإمام عليه السلام قد حذّر من بعض القضاة الذين استغلوا مهنتهم لمآربهم الشخصية فقال عليه السلام:

إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان:

رجلٌ وكله الله إلى نفسه فهو جائر عن قصـد السبيل مشـغوف بكلام بدعة ودعاء ضـلالة، فهو فتنة لمن افتتن به، ضال عن هدى من كان قبله مضلٌّ لمن اقتدى به في حياته، و بعد وفاته حمّالُ خطايا غيره، رهن بخطيئته.

و رجلٌ قمش جهلاً، مُوضعٌ (أي أمرع) في جهال الأمـة عاد في إغباش الفتنـة عم بما في عقد الهدنة قد سـمّاه أشـباه الناس عالماً و ليس به، بكر فاستكثر من جمع ما قل منه خير مما كثر،

حتى إذا ارتوى من ماءٍ آجن و اكتنز من غير طائل جلس بين القوم قاضـياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشواً رثاً من رأيه، ثم قطع به، فهو من لبس الشـهوات في مثل نسـج العنكبوت؛ لا يدري أصاب أم أخطأ، فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ، و إن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب جاهل خباط، جهالات عاشٍ ركاب عشوات لم يعض على العلم بضرس قاطع يذري الروايات إذراء الريح الهشـيم، لا مليء – و الله – بإصدار ما ورد عليه و لا هو أهل لما فُوِّض إليه، لا يحسب العلم في شيء مما أنكره ولا يرى أن من وراء ما بلغ مذهباً لغيره و إن أظلم عليه أمر اكتتم به، لما يعلم من جهل نفسه تصـرخ من جور قضائه الدماء، و تعج منه المواريث ... و آخر قـد تسـمى عالمـاً وليس به فاقتبس جهائل من جهال و أضاليل من ضـلال. و نصب للناس أشـراكاً من حبائل غرور، و قول زور و قـد حمل الكتاب (يريد القرآن الكريم) على آرائه و عطف الحق على أهوائه يقول: أقف عند الشبهات و فيها وقع و يقول اعتزل البدع و بينها اضطجع.

فأولئك هم الـذين: المعروف فيهم ما عرفوا و المنكر عندهم ما أنكروا مفزعهم في المعضـلات إلى أنفسـهم و تعويلهم في المهمات على آرائهم، كأن كل امرىء منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يرى بعرًى ثقات و ألباب محكمات

و وضع أسساً لمواصفات الفقيه، فقال:

«الفقيه، كل الفقيه، من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم

يؤيسهم من روح الله و لم يؤمنهم من مكر الله.

تلك كانت قارئي العزيز إضمامة من أقوال الإمام علي بن أبي طالب في وصف الحياة الاجتماعية في زمانه تناول فيها الولاة و القضاة و العلماء، ومن خلالهم رسم منهجاً علمياً للقوانين الإدارية و السياسية و الاقتصادية (و الاجتماعية بصورة عامة) يصلح لكل زمان و مكان إلى يومنا هذا، فهو منهج تمخض عن توقد ذهن الإمام عليه السلام الثاقب و نظرته الشمولية إلى الحياة العامة.

فإذا كان ذلك لدى البعض لم يعرف إلا في عصور متأخرة (كما ادّعى أحدهم) فما ذنب الإمام عليه السلام و قد سبق عصره و العصور التي أعقبته، و لو أمعن النظر هذا (الأحدهم) في الحياة الاجتماعية والإدارية والسياسية والاقتصادية في عهود الخلفاء الراشدين الثلاثة (أبو بكر وعمر وعثمان) لوجد أن الإمام علياً عليه السلام كان له الحضور الفاعل و المؤثر في مفاصل سياسة تلك العهود بل لم يستطع أي منهم تجاوزه في المشورة و حل المعضلات السياسية و الإدارية و الاقتصادية و القضائية، و لعل شهادة عمر بن الخطاب تغنينا عن كثير من الأدلة (الثبوتية) من أنه عليه السلام كان منقذ عمر من مطبات كثيرة؛ أليس هو القائل:

لولا علي لهلك عمر؟

و لا يفتين أحد في المسجد و علي حاضر؟

و«علي أقضانا»؟.

و لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن؟.

ثم أليس هو من استشار الإمام عليه السلام حين أراد الخروج بنفسه إلى غزو الروم فأشار عليه الإمام علي عليه السلام بقوله:

إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتنكب لا تكن للمسلمين كانفة (أي عاصمة) يلجأون إليها، دون أقصى بلادهم ليس بعدك مرجع يرجعون إليه فابعث إليهم رجلاً محرباً واحفز معه أهل البلاء و النصيحة فإن أظهره الله فذاك ما تحب و إن تكن الأخرى، كنت رداء للناس و مثابة للمسلمين.

وعندما أراد عمر أن يشخص بنفسه لقتال الفرس استشار الإمام علياً عليه السلام فأشار عليه:

إن هذا الأمر لم يكن نصره و خذلانه بكثرة و لا بقلّة و هو دين الله الذي أظهره و جنده الذي أعدّه و أمدّه، حتى بلغ ما بلغ، وطلع حيث طلع و نحن على موعود من الله و الله منجز وعده و ناصر جنده، و مكان القيم بالأمر مكان النظام (أي السلك من الخرز يجمعه و يضمه، فإن انقطع النظام تفرق الخرز و ذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً، و العرب اليوم، و إن كانوا قليلاً، فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع، فكن قطباً، و استدر الرحى بالعرب، و أصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض إنتقضت عليك العرب من أطرافها و أقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم مما بين يديك.

إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا: هذا أصل العرب فإن قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك، و طمعهم فيك، فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين، فإن الله

سبحـانه هو أكره لمسـيرهم منك، و هو أقـدر على تغيير ما يكره و أما ما ذكرت من عـددهم فإنا لـم نكن نقاتل فيما مضـى بالكثرة، و إنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة.

تلك هي الشـهادة التي لا يحتاجها الإمام و لكننا سـقناها إلى أولئك الذين سـلكوا في كتاباتهم درب الصد ما رد في تشكيكهم بنسبة ما في نهج البلاغة إلى الإمام علي، و منه هذه الفقرة التي نحن بصددها علّهم يتلمسون طريق العودة من «دربهم» ذاك إلى جادة الصواب و الحق. و عند ذاك لن يسـتكثروا على مثل الإمام علي عليه السـلام أن يصف الحياة الاجتماعية بمثل ما وصف لأنهم سيدركون أن عصر الإمام، و عهده في الحكم – خاصة – كان شديد الاضـطراب – على قصره – و عهد تلك سمته لا بد أن تختلط فيه الأوراق كما يختلط الحابل بالنابل فتهتز نفوس و تضـطرب أخرى و تُغرى ثالثـة بمباهـج الحياة الدنيا فيقصـر النظر و يضـيق الإدراك و تتقاصـر البصـيرة ... حينذاك لا بد من شخص يتمتع بقدرات ذهنية استثنائية ليعالج تلك التخلخلات و الإنثلامات في المجتمع، فكان ذلك الشخص هو الإمام علي عليه السلام و كانت معالجاته في تلك الخطب و الأحاديث و الوصايا و المراسلات التي ضمها «نهج البلاغة».

فهل ذلك كثير على الإمام علي عليه السـلام؟ الـذي وصـفه الرسول الكريم بأوصاف ما وصف مثله قط، وقد وقفنا على بعضـها في كلام لنا فائت، فضلاً عن أقوال الخلفاء الراشدين فيه، بل حتى أقوال خصومه، كمعاوية و عمرو بن العاص وغيرهما.

ص: 170

إن قليلاً من التروي في إلقاء الكلام سيجعل من صاحبه منصفاً و متصفاً بالنزاهة والأمانة التاريخية.

نرجو أن يكون أولئك المشككون من هؤلاء الرجال – الذين وصفنا – يوماً ما إن كانوا أحياء و إن ماتوا فنرجو لهم غفراناً من ربٍّ رحيم.

ص: 171

الفهرس

المقدمة ... 5

المبحث الأول: المشككون بنهج البلاغة ... 9

المبحث الثاني: الرد على المشككين بنهج البلاغة ... 25

1 – جامع النهج ... 26

2 – الغثاثة ... 30

3 – عائدية نهج البلاغة ... 43

أقوال المنصفين في نهج البلاغة ... 55

4 – التعريض بالصحابة ... 61

5 – الوصي والوصاية ... 71

6 – الإطناب والإيجار ... 83

7 – السجع ... 87

8 – دقة الوصف ... 100

9 - الألفاظ الاصطلاحية ... 108

10 - التقسيمات العددية ... 110

11 - التنبؤات والتوقعات ... 115

12 - الزهد ... 133

13 - وصف الحياة الاجتماعية ... 145

ص: 174

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

َاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

(التوبه : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمية لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجانًا. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والنذور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضًا الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟

ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟

تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلات:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 88318722 ـ 021

قسم البيع 09132000109شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاءِ من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹